من العالم المجهول

يوسف السباعى

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

الاهـــداء .....

الى اهل العالم المجهول ....
الى العفاريت والجن والاشباح والأرواح ....

اهدى كتابى هذا ، بلا سابق لقاء ولا قديم معرفة ، عله يكون فاتحة صداقة بينى وبينهم ... ليذكروننى كما اذكرهم ، ويؤكدون لى وجودهم ... فيرسلون الى - على سبيل الهدية - ماردا من عفاريتهم فى « قمقم » أو فى « خاتم » يتصاعد شبحه مع الدخان الى عنان السماء ويهز صوته أرجاء الأرض ويصيح بى « شبيك لبيك ... عبدك بين يديك » ....

فاذا استعصت عليهم الهدية .. أو استكثروها على .. فلا اقل من أن يرسلوا الى « جنية » من جنياتهم حلوة الذات لطيفة المعشر ، تؤنس - اذا ما أرقت - وحشتى ، وتقصر ليلى ، وتهبنى متعة مأمونة مضمونة لا متاعب ورائها ولا عواطف ، ولا زوابع .

هذا هو مطلبى المتواضع ... فاذا ابيتموه على ، فاما أنكم بخلاء ناكرون للجميل .. أو أنكم - كما قلت دائما - لا وجود لكم الا فى أوهام المخابيل ... وان عالمكم المجهول ... عالم غير كائن .

يوسف السباعى

مقـــدمة

أنا لا أومن بالأشباح والجن والعفاريت ... وما كنت قط خبيرا بعلم الأرواح ، وما حاولت أن أبحث فيها قليلا ولا كثيرا .. وما صادفت من الحياة الا ناحيتها الظاهرة الملموسة التى تستنفد كلَ وقتى فتشغلنى عن التفكير فيما عداها مما خفى واستتر .

اليس من السخرية بعد كل هذا أن أضع عن العالم المجهول كتابا .. وأنا أجهل الناس به وأضعفهم ايمانا بما فيه .

انى أتوق لمخاطبة روح ... أو مصادفة جن ... أو مطاردة شبح ... حتى يتبدد من نفسى ذلك الشك الذى يحيط بكل ما وراء المادة من عالم مجهول ... وحتى استجلى ، ولو مرة واحدة ، تلك الأشياء الخفية المبهمة المجهولة الغامضة .

كل ما أعرفه عن العالم المجهول لا يعدو السماع ، فأنا أسمع عن أرواح تهيم ، وأشباح تطوف ، وعفاريت تحوم وجنيات تعشق ... وكلها ظهرت لأناس آخرين ... أما أنا فلا ... حتى لكأن بينى وبينهم تنافر مستحكم ، وبغضاء مقيمة ، فهى تأبى لقائى والظهور لى .

اثنان وثلاثون عاما .. لم أصادف فيها شيئا عجيبا .. غير ملموس ولا محسوس .. ولا هبط على وحى انبأنى بنبوءة ، أو أطلعنى على سر .. ولا حلمت حلما يعنى شيئا أكثر من ترديد لما أحسه فى الحياة ، وأتشوق اليه . والمرة الوحيدة التى حاولت أن أجد لأحلامى معنى .. وأتخذها قاعدة استنتج منها ما يوشك أن يحدث .. خذلتنى خذلانا شديدا .. فقد حلمت ذات مرة قبيل الامتحان أنى رسبت ، فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى ناجحا ... وفى السنة التالية تكرر الأمر .. فادركت أن احلام السقوط عندى لا بد أن يعقبها نجاح .. وفى العام الثالث حلمت أنى رسبت ، فرحت أغدو فرحا مغتبطا .. وكدت

أسقى شربات النجاح .. فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى راسبا - بلا ملحق - ... ألم أقل لكم بينى وبين أهل العالم المجهول صلة مقطوعة ؟

انى لأسائل نفسى فى بعض الأحيان .. احقا ستحشد الأرواح من عهد آدم حتى القيامة ؟ . وهل يحتمل العالم الآخر كل هذه الأرواح من بشر ، وكلاب ، وقطط ... ونحل ونمل .. وأسود وجراثيم ؟ اليس كلها كائنات حية ذات أرواح لا تفنى !

واذا كانت الأرواح تتبادل الأجساد . فكيف ينوى أن يقتسمها أصحابها .. ومن منهم أحق بها فى العالم المجهول ؟

ولم لا تكون نهاية الانسان بسيطة .. كنهاية كل شىء ؟ .. الفناء والعدم .

وتتواتر على الأسئلة الشيطانية وأنا صامت حائر لا أعرف لها جوابا ..

ومع كل هذا التخبط فى التفكير والجهل بالحقيقة ، يتملكنى احساس بأن هناك أشياء خفية .. اشياء لا شك فى وجودها .. ولكن أذهاننا البشرية أعجز من أن تدرك كنهها ، وأعيى من أن تحيط بحقيقة كيانها .

ضلة للانسان .. ما جفل فى الحياة بشىء جهله بنفسه .. فهو ما زال يتخبط فى ادراك كنهه .. لا يكاد يعلم عن نفسه الا أنه شعاع يخبو ، وبارقة تضمحل .. يشرف على عالم الفناء المجهول .. فلا يكاد يعرف من أسراره والغازه ، الا كما يعرف ذلك الجالس على شاطىء المحيط يدلى فيه بأطراف أصابعه .

ليجبنى محطم الذرة . من أين أتى ؟ .. والى أين يذهب ؟ .

فلا أظنه بمجيب بأكثر من قول الخيام :

كم بذرنا حكمة الفكر البصير
وسقيناها جيا العقل الغزير
ما جنينا غير بهتان وزور
ما علمنا غير أنا فى الملا
شعل البرق خبث بعد التماع

يوسف السباعى



حديث على القبر

وظللت اتعثر وراءه واخوض فى أوحال المقابر ، والريح تصفر من حولى فى فحيح كريه كأنه همس الجن أو حديث الشياطين . والظلمة سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك الذى يسلطه الرجل من بطاريته .

جلست وصديقى الطبيب النفسانى ذات ليلة نقطع الوقت بالحديث والتدخين .. ونفث الرجل من فمه حفنة من الدخان تصاعدت الى الجو فى حلقات متلاشية .. وأخذ يتمم حديثه قائلا :

« وهكذا ترى ياسيدى أنه ليس هناك أشد تعقيدا من النفس البشرية ، فلقد علمتنى دراستى وتجاربى اننا مهما وصلنا فى علمنا وبحوثنا ، فلن نعلم عنها الا القليل . فهى غالبا ما تستتر وراء حجب زائفة لاتكشف عن حقيقتها .. فلا يكاد الانسان يبصر من سواه الا قشورا تحجب اللباب ، أو زبدا يستر أغوار النفس العميقة .

أجل ياسيدى .. ماجهل الآدمى كالآدمى .. فنحن لا نكاد نعلم عن بعضنا شيئا الا ما نراه من الظاهر الخداع .. أما الباطن المعقد المظلم الملتوى .. فما أشد جهلنا به .. حتى لأقرب الناس الينا .. ولو استطعنا

الوصول الى اختراع نبصر به دخائل النفوس ونطلع به على خبايا الافئدة ، لراعنا الفرق بين ما تضمر وما تظهر .. وهالنا التناقض بين ما تتكشف عنه الأعماق وما تبديه لنا المظاهر» .

وصمت صاحبى برهة .. جذب خلالها نفسا طويلا من سيجارته . وأخذ يتأمل فى الدخان المتصاعد كأنه يبصر فيه مناظر متجسدة .

وفكرت فيما قال ، فلم أجد به شيئا غريبا .. وخاصة بالنسبة لطبيب مثله اطلع على كثير من دخائل النفوس المريضة .. وتكشف له الكثير من أسرارها وخفاياها .. وقلت له معلقا على قوله :

- هذا كلام صحيح بالنسبة لمرضاك .. ولكنى أرى فيه شيئا من المبالغة والتعميم .. فالانسان لايعدم بعض الخلصاء ممن تشدهم الحياة اليه برباط من الثقة والصدق .. وتضمه واياهم أواصر المودة والاخلاص ، فتنكشف نفس كل منهم للآخر ،وتتفتح صدورهم عن كل ما تبطن .. فتصبح النفوس ، وقتذاك ، صحفا سهلة مقروءة بلا تعقيد ولا تمويه .

وضحك الرجل ضحكة ساخرة وهز رأسه قائلا :

- لا .. لا .. ياسيدى .. ان النفوس لاتنكشف أبدا . أنها قد تظهر بعض ما بها .. ولكن لاتظهر كل ما بها .. لابد لها من شىء يبقى فى الأعماق ، ويرسب فى القرار .. لا يبصره أحد .. لا صديق .. ولاغير صديق .

وصمت برهة وعاد يحملق ثانية فى الدخان المتصاعد ، وشرد به ذهنه كأنما يستجمع ذكريات غابرة ثم عاد يقول :

- أجل .. ما أشد جهلنا حتى بأقرب الناس الينا .. سأقص عليك قصة صديق .. قصة صديق لا مريض .. فقد كان كل ما بيننا صداقة خالصة .. وما فكرت فى يومٍ ما أن بنفسه مرضا حتى أتولى علاجه .. بل كنت أجده خير الناس .. وأسلمهم عقلا ونفسا وجسدا .

عرفته معرفة جيدة .. فقد كان يقطن بجوارنا فى نهاية مصر الجديدة .. ورغم الفارق الظاهر بيننا فى العمر ، فقد توثقت عرى الصداقة بسرعة .

كان طبيبا متقاعدا قد بلغ الستين من العمر ، وكان يقضى جل وقته : اما فى حديقة الدار الضيقة جالسا على مقعد خيزرانى يتمتع بشمس الشتاء .. أو جالسا وراء النافذة البحرية يتمتع بنسمات الصيف .

وكان يعيش فى الدار وحيدا .. لايؤنس وحشته سوى خادم عجوز تهيىء له الطعام وترعى امره وأمر الدار .

ولقد أحببت الرجل من أول لقاء .. فلقد كان من ذلك النوع من الناس الذى يبدو لنا كالبلور الشفاف .. لاتشوب نفسه شائبة ولا يعتم بريقها ضباب من مكر أو سوء ، أو بغض أو رياء .

كان رجلا ، لطيف المعشر ، حلو الحديث طيب القلب ، نقى السريرة .. حسن الظن بالناس الى حد قد يسميه البعض بلها .. وان كنت أنا لاأرى فيه الا سموا فى الخلق وعلوا فى التفكير .

وتبادلنا الزيارات .. يوما بعد يوم .. وتعودنا أن نقضى سهراتنا سويا اما فى دارى أو فى داره .. نقطع الوقت بلعبة الشطرنج ، أو تبادل الأحاديث والأقاصيص .. أو فى سماع مايستحق السماع من الاذاعة . ولم نكن نكلف أنفسنا مشقة الرسميات .. اذ كان تجاور الدور يهيىء لنا أن نتزاور بملابس البيت وقد وضع كل منا «روبا» على كتفيه .. وجلس فى منزل صاحبه كأنه فى منزله .

وأثبتت لى الأيام حسن ظنى بالرجل .. بل لقد وجدته خيرا مما ظننت ، فقد كان مفرطا فى الطيبة ، مفرطا فى حب الخير .. الى الحد الذى يجعل طيبته نوعا من أنواع الشذوذ . ويجعل ميله للخير مصدرا لمتاعبه .. فهو أبدا قلق .. لايفتأ يوخزه ضميره .. لتوهمه أنه كان يستطيع أن يفعل خيرا مما فعل .. فهو من ذلك النوع الذى نستطيع أن نسميه «عبد ضميره» .. وهو نوع متعب ، مجهد ، شديد القلق .

لاشك أن فعل الخير هو واجب كل انسان فى هذه الحياة ولكنى اعتقد ان الافراط والمبالغة فى أى شىء .. حتى فى فعل الخير .. يعتبر فى المرء نقيصة .. فهو يجعل من الانسان «عبدا» لذلك الشىء الذى نسميه الضمير ..

والذى يملأ نفوسنا بمركب الندم .. فيجعلنا نندم على كل شيء فعلناه .. ونتحسر لأننا لم نفعل خيرا مما فعلنا .

أجل ياسيدى .. يكفى أن نعطى لمحتاج حسنة .. أما ان نندم فى كل مرة لأننا لم نعطه أكثر مما أعطينا فتلك مسألة لاتطاق .. ان الضمير شديد الطمع فى الانسان .. فيجب الا نعطيه الفرصة .. لكى يستعبدنا ويتحكم فينا ، ويكبلنا بأغلاله ، ويفسد علينا حياتنا .. ان الحياة أقصر من أن نقضيها ونحن نجر وراءنا سلاسل الضمير .

فمثلا .. كان ضمن ما يثقل على الرجل ويسبب له قلقا دائما - بلا ادنى سبب - أرملة صديق له تقطن فى نفس الشارع .. ولست أنكر أن من واجب الصديق أن يرعى زوجة صديق راحل ويقضى حاجتها ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ولست أنكر أيضا أن الأرملة العجوز .. أو - الست شفيقة - كانت تستحق كل رعاية وكل عناية . ولكنى رغم كل ذلك لم اكن أجد مبررا لأن يثقل الرجل على نفسه بمثل ما أثقل عليها به .. وأن يحس دائما انه مقصر من أجلها ، ومن أجل صاحبه الراحل .. وانه لايكاد يشعر براحة الضمير من فرط توهمه .. أنه لم يفعل من أجلها ما كان يجب أن يفعل .

ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل .. خيرا مما فعل ؟ .. لقد كان جم العطف عليها ، والبر بها .. دائم السؤال عليها .. يرعاها كما يرعى الابن أمه ، والأب ابنته .. ولست أشك فى أنها لو كانت اختا له لما فعل أكثر مما فعل .

ولقد حاولت جهدى أن أسرى عنه ، وأفهمته أن للخير حدودا وأنه قد فعل أكثر من واجبه .. وأن أحدا من أصدقاء صاحبه لم يفعل نصف ما فعل .. ولكنه مع ذلك استمر على قلقه .. لقد كان «عبد ضميره» .. وكان لابد له أن يحس بالندم على شيء ، فلو لم يكن من أجل - الست شفيقة - لكان لأى سبب سواها .

وفى ذات يوم سألنى رأيى فى أنه يود أن يهب نصف دخله - للست شفيقة - حتى يعينها على العيش لأنه يحس أنها فى ضيق .. وأن معاشها

لايكاد يكفيها .. ولقد اصابنى من قول الرجل دهش وسألته عما اذا كان جادا فى قوله . فأجابنى أنه جاد كل الجد .

وأحسست للرجل بتقدير بالغ واكبار شديد ، ولكنى رغم ذلك لم أستطع موافقته ، فلقد كان هو نفسه فى حاجة الى كل مليم من دخله .. وكنت أعرف ان المرأة لاتشكو من شىء ، وأنها - كما قالت عندما صادفتهافى زيارة له - تنعم بالستر ، وانها تشكر الله على فضله .. ولم يكن يبدو عليها مظهر ضيق أو عسر ولكن الرجل أصر على رأيه . ولم يستمع الى قولى .. فقد رأى ان هذا واجب عليه لابد من أدائه ، وانه مقصر لأنه لم يفعله قبل ذلك .

ورفضت «الست شفيقة» طبعا ما عرضه الرجل ، وانبأته شاكرة أنها ليست فى حاجة الى شىء ، فمعاشها يكفى كل حاجتها وأنها لاتطمع فى خير أكثر مما هى فيه .

وفى ذات ليلة ، لاأظن ذكراها ستمحى من ذاكرتى قط ، كنت أجلس والرجل فى دارى ، وقد استلقى كل منا على اريكة وأخذنا نستمع الى حفلة غنائية تذاع لأم كلثوم . وكانت ليلة من ليالى الشتاء الشديد القر ، التى تعصف ريحها فيسمع لعصفها صفير وفحيح .. وقد جلس الرجل امامى مدثرا جسده النحيل برداء من - صوف الجمل - وتلفح «بكوفية» أحاطت رأسه وعنقه ونصف وجهه ، ووضع على عينيه منظاره السميك ، وتهدل شاربه الأشيب مغطيا شفتيه ، وبدت شعرات بيضاء متناثرة حول ذقنه ، وبرزت عظام وجنتيه ، وأغمض عينيه نصف اغماضة ، وأخذ يهز رأسه ببطء ، ويضرب الأرض بقدمه متمشيا مع الأنغام .

ورويدا رويدا .. رأيت ضربات قدمه تخف ، وهزات رأسه تبطؤ ، وأغماضه عينيه تزيد .. حتى سقط رأسه على صدره ، وعلا شخيره ، وتملكه سلطان النوم . ولقد تعودت من الرجل تلك الطريقة فى النوم .. وتركته فى غفوته حتى انتهت الوصلة الغنائية .. فاستيقظ من تلقاء نفسه .. فلقد كان الانتقال من الضجيج الى الصمت يوقظه ، وهتفت به ضاحكا :

- صح النوم .. يا أحمد بيه .

– أى نوم ؟ .. لقد كنت فى تمام اليقظة .

وكان هذا هو رده الدائم .. فما كان يعترف قط بأنه نائم ، ونهض من مجلسه ورافقته حتى الباب وودعنى عائدا الى داره .

ومضت ربع ساعة كنت خلالها قد تمددت فى الفراش ، وبدات عيناى تغفو .. ونهضت فزعا عندما سمعت طرقا على الباب .. وأسرعت اليه ففتحته ، واذا بالرجل قد عاد مرة أخرى .. وخشيت أن يكون قد اصابه شىء ، فهتفت به فى قلق :

– أدخل .. ما بك ؟

ودلف الرجل الى الداخل ، وأقفلت الباب فى عجلة ، فقد كانت تنفذ منه ريح باردة تلسع العظام .. وتأملته على ضوء مصباح الصالة ، فوجدته قد ارتدى ثيابه الكاملة .. بدلته وطربوشه ، وحذاءه ، ومعطفه الأسود الثقيل ، ولف وجهه جيدا بالكوفية .

وصمت الرجل برهة ، ثم قال فى صوت ملؤه القلق والتردد :

– لقد .. لقد نسيت شيئا . شيئا هاما .

وبدت على ملامحه تلك العلامات التى تنبىء بأن ضميره الطامع فى خيره قد عاد يثقل عليه كعادته ، وأحسست بالشفقة عليه .. ان الرجل خير منا مائة مرة .. ومع ذلك فان ضميره غير قانع .. انه يريد أن يكون خيرا مما هو .. ترى ماذا به هذه المرة ؟

وقلت أسأله فى رفق :

– ماذا نسيت يا أحمد بك ؟

– نسيت أمرا هاما .. كان يجب أن انتهى منه . ولكنى اعتقد ان الفرصة لم تذهب .. ما زال هناك بعض الوقت .

وصمت برهة ثم عاد يتمتم مترددا :

– هل .. هل استطيع أن استعير عربتك .. فلاشك أنها ستسهل لى المهمة .

وسألته فى دهشة :

– تريد ان تخرج بالعربةالآن .. فى هذه الساعة المتأخرة وفى هذا الجو المكفهر ؟

وكان المطر قد بدا يتساقط .. ووصل الى آذاننا صوت قطرات الماء تقرع زجاج الباب .. ووجدت أن من الجنون أن أوافق الرجل على ما يطلب ، فأعطيه العربة ليقودها وحده فى تلك الساعة من الليل وفى زلق الطريق .. وأنا غير واثق من قدرته على القيادة .. انى لاشك أكون ملقيا به الى التهلكة . وبدا لى الرجل فى حالة اضطراب شديد .. فقلت له مهدئا ، وأنا أقوده الى الداخل :

– تعال نجلس برهة .. اشرح لى المسألة .

– المسألة لاتحتاج الى شرح .. انى أريد عربتك لقضاء حاجة .

– ولكن من الجنون أن أدعك تقود العربة الآن وانت فى مثل هذه الحالة من الاضطراب .

وأطرق الرجل فى حزن ، ثم قال بصوت خفيض :

– حسنا .. أستطيع أن أجد وسيلة أخرى .. أو اذهب حتى سيرا على الأقدام .

– ولكن فى هذه الساعة ؟ .. كلا .. ان هذا جنون .. لم لاتنتظر حتى الصباح ؟

ولكن الرجل لم يجب .. وظهرت على وجهه علامات الاصرار .. ومد يده الى مودعا .. وهم بأن يتجه نحو الباب ولكنى لم أترك يده .. فقد وجدت ان من الحمق أن اتركه وحده .. وعدت أقول له :

– اذا كان لابد لك من العربة .. فسآتى انا معك لقيادتها .. اما ان أعطيها لك لتقودها وحدك ، فهذا ما لن أفعله قط .. ما رأيك ؟

وصمت الرجل برهة ثم أطرق برأسه قائلا :

– حسنا .. هيا بنا .

وأسرعت بارتداء ملابسى وقد تملكنى خليط من السخط والدهش .. السخط على الرجل الذى حرمنى من النوم .. واضطرنى الى الخروج فى مثل ذلك القر والمطر .. والدهش مما يريد ان يفعله فى مثل هذه الساعة .. ولا يحتمل التأجيل حتى الصباح .

وبعد لحظات كانت العربة تنساب بنا فوق الأرض اللامعة التى صقلها المطر .

وأخذت قطرات المطر تضرب زجاج العربة ، وبدا لى الطريق ، وقد امتدت على جوانبه المصابيح الخابية الضوء ، الناعسة الطرف من خلال الفتحة المثلثة التى رسمها أمامى الماسح الذى أخذ يروح ويجىء ماسحا الزجاج مما علق به من شوائب المياه ، وسرنا بالعربة مخترقين شارع الخليفة المأمون ثم شارع العباسية كما طلب منى الرجل ، حتى وصلنا الى تقاطع شارع سعيد بشارع العباسية .. ثم طلب منى أن اتجه الى اليسار .. ولكنى سألته فى دهشة :

– إلى اليسار ؟

– أجل ..

ولم يكن الطريق الى اليسار ليؤدى الا الى قلم المرور ، أو «مقلب الزبالة» ، أو «قرافة الغفير» .. ولم أستطع أن أفهم ماذا يمكن أن يكون غرض الرجل من الذهاب الى أى من تلك الأماكن فى هذه الساعة من الليل .

واتجهت الى اليسار كما طلب ، وأنا أحاول عبثا أن أستنتج ماذا ينوى الرجل فعله ، وأخذ الرجل يوجهنى يمنة ويسرة .. وأنا أحملق فى الطريق حتى وجدت العربة فى طريقها بين المقابر .

أنا لست بالرجل الجبان .. ولا بالرجل الذى يتوهم وجود الأشباح والعفاريت .. ولا حتى بالذى يحس للموت برهبة أو خشية .. بل أنى اعتبره نهاية حتمية لكل كائن .. وعلى هذا فليس للمقابر فى نفسى أى أثر وهمى .. لأنى لا أعتبرها أكثر من صناديق للقمامات .. القمامات البشرية . أو المخلفات

الانسانية أو الرمم والعظام المختلطة بأديم الأرض .. هى «ومقلب الزبالة» سواء .

ولكننى رغم ذلك لم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى بدنى وأنا أجد نفسى بين المقابر ، وقد احاطتنى ظلمة حالكة الا من شعاع مصباح العربة الذى يخترق طريقه فى الظلمة حتى يقع فى النهاية على قائم أحد القبور .

وطلب منى الرجل أن أقف ، ثم رأيته يفتح باب العربة وينزل الى الطريق .

ثم يطلب منى أن انتظره ريثما يعود ..

وخشيت عليه أن يصيبه اذى ، فقفزت من العربة وسألته إلى اين .. وماذا ينوى أن يفعل ، فقال لى أنه سيغيب عنى عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر .. ولكنى لم أتركه بل أخذت أتبعه ، ورأيته قد أخرج من جيبه بطارية صغيرة يتبين طريقه على ضوئها . وظللت اتعثر وراءه واخوض فى أوحال المقابر ، والريح تصفر من حولى فى فحيح كريه كأنه همس الجن أو حديث الشياطين .. والظلمة سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك الذى يسلطه الرجل من بطاريته على رؤوس المقابر .

وأخيرا توقف أمام باب خشبى ، ودفعه بيده ، فأحدثت مفاصله الصدئة صليلا مخيفا بعث القشعريرة فى بدنى ، ودلف الرجل الى الداخل ، فحاولت أن اتبعه ، ولكنه توقف فى طريقى وسألنى مستعطفا :

- أرجوك ان تنتظرنى هنا .. دعنى أدخل وحدى .

ولست أدرى ماذا كان يدفعنى وقتذاك الى أن أصر على اتباع الرجل حتى النهاية .. أهو خوفى عليه أم حب الاستطلاع الذى كان قد بلغ عندى وقتذاك أشده .. أم هو خليط من هذا وذاك .

وأجبت الرجل باصرار وعناد :

- لن ادعك وحدك أبدا .

وصمت الرجل برهة ، ثم أطرق برأسه وقال بصوت خفيض :

– اذا فلا تضحك على .. أرجوك .. سأدخلك بشرط الا تسخر منى .. قد يكون فيما سأفعله شيء يبعث على الضحك والسخرية ولكن اؤكد لك أن هذا واجب أؤديه .

وافسح لى الطريق ، وأخذ كلانا يسير الى الداخل حتى وصلنا الى قبر قد تسلقته احدى نباتات انصبار .. ورأيت الرجل قد توقف ورفع كفيه الى السماء واخذ يتمتم قارئا «الفاتحة» ، فقلدته فيما فعل . وما انتهيت حتى بدا يوجه الى الحديث فى صوت هامس :

– ان بينى وبين صاحب القبر موعدا للقاء ، فى مثل هذا اليوم من كل عام ، وهو يوم وفاته .. وكل ما أرجوه هو الا يكون قد قلق من طول الانتظار وظن أننى قد نسيت الموعد فانصرف .. انه صديقى «ابراهيم» افندى زوج «الست شفيقة» .. لقد كنا خير اصدقاء .. ولقد اتفقنا قبل أن يموت على أنه اذا مات احدنا قبل الآخر فعلى الباقى على قيد الحياة ان يزوره مرة فى كل عام لكى يحمل اليه أخبار الدنيا وما حدث فيها خلال العام ولقد وفيت بوعدى كل السنين السابقة .. ولكنى كدت أنسى الموعد اليوم .. حمدا لله .. انى قد تذكرت .. ماذا كان يقول الرجل عنى لو لم أحضر ؟

وعصفت الريح فدفعت الباب دفعة قوية وتملكنى من صوت اندفاع الباب خوف مفاجىء .. ورفع الرجل سبابته الى شفتيه طالبا منى الصمت ، ثم سمعته يقول بصوت مرتفع : «السلام عليكم» .

ولم يجبه أحد ولكن الريح أخذت تعبث بالباب المفتوح فأحدثت به عدة طرقات بدت كأنها رد للتحية ، وأخذ الرجل يتمم حديثه والريح تقرع الباب بين آونة وأخرى .. قرعات عادية جدا .. كما تفعل الريح دائما بكل باب أو نافذة مفتوحة . ومع ذلك فقد بدت القرعات وقتذاك كأنها اجابات لحديث الرجل .. وكانت تبعث فى جسدى قشعريرة خوف .

وأخذ الرجل يخاطب صديقه صاحب القبر قائلا :

– ان معى اليوم صديقا عزيزا .. الدكتور محمود .. رجل لطيف ذو مروءة .

وقرع الباب كأنما يحمل اجابة الروح – تشرفنا – أو – أهلا وسهلا – وعاد صاحبى يتابع حديثه قائلا :

– سأبدأ فى قراءة الأخبار .. لقد دونتها كعادتى حتى لا أنسى منها شيئا ..

ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية ونشرها أمام عينيه ، ثم خلع منظاره ومسحه بطرف منديله ، وبدا يقرأ ممسكا الورق باحدى يديه ، مسلطا ضوء البطارية على الكلمات باليد الأخرى .. قال الرجل :

– الأخبار الداخلية .. لا جديد يذكر .. البلد ما زالت كما هى .. الحكومة فى واد والشعب فى واد .. الحكومة فى وادى العز والسلطان والجاه والأبهة .. والشعب فى وادى الفقر والبؤس والمرض والجهل .. الوزارة هى .. هى .. يقول المعارضون أنها تموت غدا .. وتقول هى انها تعيش أبدا .. ذهبنا الى مجلس الأمن .. وشكينا وبكينا .. وتوسلنا الى الذئاب ان ينقذونا من أخيهم الأسد .. وقلنا لهم انه شبع فينا عضا .. ونهشا ، وأنه يوشك أن يلتهم نصفنا الأسفل وينهش نصف أحشائنا .. وغضبت الذئاب .. لا على الأسد بل علينا .. لاننا ناكرون للجميل .. حانثون بالعهد .. وقالوا لنا خير لكم أن تتفاهموا مع أخينا الأسد مباشرة .. تفاهموا معه وأحشاؤكم بين أسنانه .. وعنقكم فى فكيه .

عدنا من مجلس الذئاب .. مهللين مكبرين .. لم ؟ لا ادرى والله .. هذه مسألة لازلت أفكر فيها حتى الآن .. وقد استطيع أن أحدثك عنها فى العام القادم .. عدنا عودة الغزاة الفاتحين .. رغم ما نالنا من فشل وهزيمة .. وعلقنا الاعلام ونصبنا الزفف ولعل ذلك من باب التفاريح والعزاء .. ان احدا لا يلومنا على الهزيمة .. ولكن اللوم كل اللوم على أن نفرح بالهزيمة .. ونجعل منها أمام أنفسنا انتصارا ..

وأعطت الوزارة نفسها الخازوق الأكبر .. ولم تستقل ولو استقالت وقتذاك لاستطاعت أن تحتفظ بما كسبته مدى الدهر ولأوضحت للناس أنها كانت جادة فيما قالته فى مجلس الأمن وأنها أتت بما لم تستطعه الأوائل ..

ولكنها لم تفعل بل أغراها السلطان أو أغريت به .. وبدأت تخسر ما كسبته شيئا فشيئا .. وبدا للناس ان كل ما فعلته مظاهرة أو «زوبعة فى فنجان» .. وبدأت هى تلوذ بسياسة عجيبة .. هى سياسة التجاهل ..

لقد كان الانجليز يتجاهلوننا .. فأصبحنا نتجاهلهم .. ترى هل هناك أى فارق فى النتيجة .. هل هناك فارق بالنسبة للمدين .. بين أن يتجاهل هو الدائن أو يتجاهله الدائن ؟ .

لقد أغرقتنا بعد ذلك سياسة التجاهل .. التجاهل من كل ناحية .

فالانجليز يتجاهلوننا ويفعلون ما يشاءون .. ونحن نتجاهلهم فنغض الطرف عما يفعلون .

اما الأخبار الخارجية .. فلا شيء جديد .. لا جديد أبدا .. ان التاريخ البليد يعيد نفسه كأنما يعطينا من الماضى القريب صورة (طبق الأصل) منه بالكربون .. نفس المطامع ونفس التطاحن ونفس التكتل .. ونفس مهزلة عصبة الأمم .. التى سميت الآن هيئة الأمم .. لاجديد أبدا .. ان البشر مازالوا كما هم .. حمقى مجانين .. كيف يغير التاريخ وجهه .. وهم لايغيرون ما بأنفسهم .

وصمت الرجل .. ورأيته يطوى الورقة ويضعها فى جيبه ويصمت برهة ثم يعاود الحديث قائلا :

- بقى لى معك حديث خاص .. أود أن أسر اليك به لقد ترددت كثيرا قبل أن اقدم على قوله .. ولكنى صممت فى النهاية على أن أقوله .. فانى لا أستطيع أن أحتمل عاما آخر من وخز الضمير .

هل تذكر وفاتك ؟ .. طبعا تذكرها .. لقد كانت عقب مرض طويل .. توليت أنا علاجك منه . ولاشك أن وفاتك قد بدت طبيعية لكل الناس .. حتى لك أنت .. ولكنها لم تكن كذلك .. انى أحمل نفسى مسئوليتها .. أنا لم أقتلك بالطبع وأنت تعلم ذلك .. ولكنى أعتبر نفسى مسئولا عن موتك .. اننى قاتل أمام نفسى فقط .. كنت استطيع أن أمنع وفاتك .. أو على الأقل أؤجلها ..

كنت أستطيع ان امنحك فترة حياة أخرى .. ولكنى لم أفعل .. بل تركتك تموت .. كنت أستطيع أن أبذل جهدا اكثر مما بذلته من أجلك ، ولكنى لم أبذل .. لأنى كنت أريدك أن تموت قبلى هل تدرى لم ؟ .

انك لاشك تذكر زواجك .. لقد كان ذلك الثلاثين عاما .. منذ زمن طويل .. ولكنى مع ذلك لم انسه قط .. فلقد كان صدمة لى .. لأنى كنت على وشك أن أخطب شفيقة، .. فلقد أحببتها كما لم يحب انسانا .. ولكنك سبقتنى اليها ففزت بها ، وبؤت أنا بالخيبة والخذلان . تزوجتها انت ، ولاشك أن حبك لها - ان كنت قد أحببتها - قد خبا على مر الأيام .. أما أنا فقد أبقى الحرمان على حبى ، فما انطفأت جذوته ولا خبا لهيبه . ولم أقدم على الزواج ، بل عشت وحيدا ، لأنى لم أكن اجسر على التفكير فى أن أتزوج سواها .

ومرت الأيام والسنون ، وقد طويت حبى بين الحنايا .. وقنعت منه بصداقة خالصة لا تشوبها شائبة .. فأخلصت لك ولها ، راضخا لحكم القدر .. راضيا بما وهبنى اياه .. حتى بدأ الهرم يدب ثلاثتنا ، وما زال حبى كما هو .. ومرضت أنت وطال بك المرض .. وأنا أتولى علاجك والعناية بك .

ولقد سألت نفسى ذات يوم .. ما النهاية .. وكيف المصير .. هل قضى على بالحرمان مدى العمر ؟ هل قدر لى أن أخرج من الحياة صفر اليدين .. وساورنى اذ ذاك خاطر بعث فى نفسى بعض الأمل وبعض العزاء .. لقد قلت لنفسى انك قد تخرج من الحياة قبلى .. فيخلو لى الطريق وأستطيع أن أمتع نفسى المحرومة .. بضع لحظات فى نهاية العمر .. أستطيع أن أدفىء القلب المقرور بأشعة الشمس الغاربة الهاربة .

وقوى مرضك هذا الأمل فى نفسى .. وأخذت انتظر فى هدوء وسكينة .. أن تتفضل وتترفق بى .. وتغادر الحياة .

ولكن مرضك قد طال .. وبدأ القلق يساورنى .. وتملكنى خوف من أن يسخر منى القدر فيخرجنى من الحياة قبلك .. وأغادر الحياة كما دخلتها ، محروما محسورا .

وبدأت أقدر الموقف .. فوجدت انك قد نعمت بها – أعنى بزوجتك ثلاثين عاما .. وانك قد أخذت من الحياة قدرا كافيا وفزت منها بنصيب الأسد .. وانك الآن لم تعد تتمتع منها بشيء فان حياتك مع المرض الذى اعتراك ، حياة ضيق وتبرم .. وأن خروجك من الحياة خير لك .. ولى .. فلاشك أنك لن تأبى على – وأنت الرجل الكريم – أن تهبنى بضع سنوات من خريف الحياة بعد أن تمتعت انت ببهجة الربيع وازدهاره .

وهكذا اقنعت نفسى .. أن كل جهد أبذله لاطالة حياتك هو جهد ضائع .. لأنى أهبك لحظات لن تجدك نفعا ، ولكنها تسبب لى خسارة .. أجل لقد كنت أهبك لحظات من حياتى ومن متعتى .

وبدأت أتراخى فى علاجك .. فقل جهدى .. ولم أعد أقبل على العناية بك بنفس الاخلاص ونفس الرغبة .

ولست أدرى ان كان ذلك التراخى منى قد عجل بنهايتك ، أم أن أجلك هو الذى قد حان .. ولكن الذى أدريه هو انى قد ذهبت اليك ذات صباح فوجدتك قد فارقت الحياة .

وبكيتك كما بكتك زوجتك .. بكيتك مخلصا .. فلقد أحزننى فقدك .

ولم تستطع تلك الرغبة الخفية فى الخلاص منك ، وفى أن تسبقنى الى الخروج من الحياة .. أن تخفف لوعتى على فراقك فقد كانت صداقتنا صداقة عمر .. وكنت أحبك .. فما رأيت منك الا كل خير وكل صنيع حسن .

ومرت الأيام بعد موتك .. وكنت أحس دائما بنوع من تأنيب الضمير .. تزداد وطأته كلما أبصرت بزوجتك .. ورأيت حزنها ووحدتها .. وبدأت أشعر أن واجبى الأول هو أن أعينها فى حياتها .

ولقد خلا لى الطريق بعد ذهابك .. ولكنى وجدته شديد الظلمة والوحشة ، ولم أر له البريق الذى كنت اتخيل .

ومع ذلك – ولا أكتمك القول – اننى لم أستطع أن أقاوم تلك الحماقة التى دفعتنى الى أن أسألها الزواج .. فأدهشها قولى .. ولم يسعها الا أن تردعنى برفق وعطف .. كأنها أم حنون .

انى أحس أنها تعيش فى ضنك ، ولقد حاولت أن أعينها بشىء تافه من المال .. ولكنها أبت .. ولشد ما يثقل على الا أستطيع معاونتها وأن أشعر أننى كنت السبب فيما أصابها .

لقد كنت مخطئا كل الخطأ فى اخراجك من الحياة .. فانى أشقيتها دون أن أشعر نفسى بأية سعادة .. وبت أحس أنى قد أجرمت فى حقك وفى حقها وفى حق نفسى .. وثقلت على وطأة الضمير .. ويخيل الى أن هناك طريقا واحدا لاصلاح ما أفسدت ، لقد فرقت بينكما فليس هناك ما أستطيع التفكير به عما فعلت سوى أن أجمع بينكما مرة أخرى .

ولقد كان بودى أن أعيدك اليها .. ولكن هذا – كما تعلم أنت خير العلم – أمر يستحيل على عمله .. وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى أمر واحد .. وهو أن أعيدها إليك .. فذلك شىء أظنني أستطيعه .. أجل انى سأرسلها اليك فى أقرب فرصة أقرب مما تتصور .. وسأصبر أنا على فراقها وأتجلد وليعنى الله على احتمال الحياة .. حتى يخرجنى منها اليكم .



وصمت الرجل .. وسمعت الريح تقرع الباب بشدة .. ورأيته يرفع يده بالتحية قائلاً «السلام عليكم» .

واتجهنا الى الباب ، وسرنا فى صمت ، وقد تملكنى دهش شديد ، وأخذت أستعيد لنفسى ما قاله الرجل .. فهالنى الأمر .

ان الرجل – كما اعترف أمام القبر – رجل قاتل .. وهو على وشك أن يقدم على ارتكاب جريمة أخرى .. وهى كما يسميها اعادة المرأة الى زوجها الذى أخرجه من الحياة .

ولم أشك وقتذاك فى أن الرجل مجنون .. وأن أول ما يجب على القيام به هو أن أنقذ من براثنه – الست شفيقة – التى ينوى أن يخرجها من الحياة فى أقرب فرصة .. وبعد أن أنقذها أبلغ عنه ليرسلوه الى مستشفى المجاذيب .

ووصلنا الى الطريق وسارت بنا العربة دون أن ينبس أحدنا ببنت شفه حتى وصلنا الى دورنا ، وشد الرجل على يدى مودعا وعاد الى بيته .

ولم أذهب الى دارى بل انطلقت الى دار الست شفيقة .. لقد كنا حقا فى ساعة متأخرة من الليل .. ومن الحمق أن أوقظها فى ذلك الوقت . ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت .. ان الرجل المجنون قد عزم على أن يلحقها بزوجها .. فى أقرب فرصة .. أقرب مما نتصور .

وقرعت بابها .. ولم يجبنى أحد فى بادىء الأمر .. ولكنى بعد لحظات أحسست خطوات ثقيلة تقترب من الباب وتفتحه وأطل على وجه الخادم .. وقد بدا عليها ذعر شديد .. وسألتنى عما بى وعما أريد .

فقلت لها فى عجلة : انى أريد أن أرى سيدتها فى أمر هام ، فأجابتنى فى دهش : انها نائمة وأنها لا تستطيع ايقاظها . ولكنى أصررت على أن توقظها . وقلت لها أن المسألة خطيرة جدا .

واغلقت الخادم الباب ، وعادت الى الداخل .. ووقفت فى الخارج أنتظر الرد فى ضيق وقلق .

وفجأة سمعت صياحا وولولة ، ورأيت الخادم تهرول نحو الباب وتطل على لتخبرنى باكية .. ان سيدتها قد ماتت .

لقد تركت الحياة .. أسرع كثيرا مما تتصور .

★ ★ ★

وصمت محدثى .. وطال به الصمت وهو يحملق فى الدخان المتصاعد من سيجارته .. وبدا لى كأنه قد انتهى من قصته .. وقطعت عليه صمته متسائلا :

– والرجل ؟ . ماذا فعلت به ؟ .

- لا شيء .. وماذا كنت أستطيع أن أفعل به .. وقد خرج هو الآخر من الحياة قبل شروق الشمس .. أجل ياسيدى لقد مات الرجل فى نفس الصباح .

- أمر عجيب !

- عجيب .. وغير عجيب .. ان المسألة كلها لا تعدو أن تكون طبيعية ، لا جريمة فيها ، اذا حاولنا أن نفحصها من الناحية المنطقية المعقولة .. وهى مسألة عجيبة اذا ما حاولنا ان ننظر اليها من وجهة النظر الأخرى وجهة نظر الرجل نفسه .

فاذا حاولنا أن نفسرها من الناحية الاولى فاننا نجد ان الزوج الراحل قد مات موتة طبيعية نتيجة لمرض عادى ، ولكن صاحبنا الطبيب ، وهو كما قلت لك ، مصاب بمرض الضمير أو من النوع الذى نسميه «عبيد الضمائر» الذين يحسون بندم على كل ما يفعلون قد تخيل له أنه قصر فى علاج الزوج وأن تقصيره هذا قد سبب وفاته .. واستمر ضميره يثقل عليه حتى أصابه بنوع من الجنون .. هيأ له أن يقتل المرأة ليبعث بها الى زوجها فى الحياة الأخرى .

وصادف أن ماتت الزوجة فى تلك الليلة موتة طبيعية .. ثم مات هو فى الصباح نتيجة لذلك الجهد الذى بذله ، ونتيجة لتعرضه للصقيع والمطر .

هذه هى كل المسألة لا عجب فيها ولا غرابة .

أما اذا حاولنا أن نراها من وجهة نظر الرجل ، فاننا نجد فيها مسألة عجيبة حقا فالرجل قد قتل الزوج خوفا من أن يموت هو قبله فلا يستطيع أن يتمتع بالمرأة التى أحبها ولو حتى فى خريف العمر .. ثم ندم على ما فعل ، وأشقاه حزن المرأة ورفضها زواجه فألحقها بزوجها .. متخيلا أن فى ذلك راحة لها وتكفيرا عما فعله بزوجها .. وزادت عليه وطأة الضمير .. فلم تشرق عليه شمس اليوم الا وقد الحق نفسه بالسابقين .

ويخيل الى أننا لو أردنا أن نختتم القصة على لسان الرجل أو لو استطاع

أحد أن يوجد بجواره فى تلك اللحظة التى أقدم فيها على الانتحار ، لسمع منه تتمة ذلك الحديث الذى القى به على قبر الزوج الراحل :

«لقد أرسلتها اليك .. انكما لاشك تسعدان الآن بلقاء ممتع انى احس بوحشة الحياة .. ومرارة الفراق .. وأحاول أن أصبر وأتجلد .. ولكننى لا أستطيع .. لقد قضيت حياتى محروما ، ولكن خير ما كان يعيننى على الحياة هو احساسى بوجودها وانى أستطيع أن أراها وقتما اشاء وأحس بعطفها على .

اما الآن فماذا يعيننى على الحياة .. ماذا يغرينى على البقاء فيها .. لا .. انى لا أحتمل الوحدة .. انى قادم اليكماء .



أرواح هائمة

تعالى معنا .. والق به فى اليم أو
بعثره على الربى .. انك لن تستطيع
أن تبتاع به شروق شمس أو حب
قلب .

اشتدت الزوابع من حولها ، وزاد عصف الريح وزئير الأنواء .. وأحست كأنها تهيم فى فراغ شديد الحلكة ، معتم الدياجير .. وتلفتت حولها فى فزع تتلمس ملاذا تلوذ به ، أو مقرا تستقر فيه .. فلم تجد سوى الفراغ والظلمة . وأخيرا رسا القارب على الشاطىء ، محدثا فرقعة شديدة ، سرت منها قشعريرة في بدنها وخيل اليها أن الشاطىء الصخرى قد حطم القارب ومزقه اربا .

وبعد برهة وجدت نفسها وحيدة على الشاطىء وقد خيم من حولها الظلام ، وساد السكون الا من همهمة الريح وهدير الموج ، وتلفتت حولها فلمحت على ضوء القمر الخافت شبحا يقترب منها ما عتمت أن ميزت فيه توأم نفسها وصنو روحها ، فندت عنها صرخة خافتة وعدت اليه لترتمى بين احضانه ..

وضمها صاحبها الى صدره فى رفق وحنان ، وهمس فى أذنها بصوت يفيض رقة وولها :

– ما كنت أحسب ، ياحبيبتى ، أننا سنلتقى مرة أخرى . لقد كنت أحس بفرط الوحشة ، وكنت أسير كضال فى بيداء مقفرة مجدبة ، لا ماء فيها و لا رواء .. كنت أهتف باسمك فى كل خطوة أخطوها .. ما دعوت الله بأحر مما دعوته لكى يعيدك الى . سلى الرمال كم مستها جبهتى سجودا لله من أجلك .. سلى الريح ، والصخور ، والمياه ، أن كانت تعى شيئا غير اسمك وصلاتى من أجلك .

– صلاتك من أجلى .. وصلاتى من أجلك .. أجل ياحبيبى . أنا أيضا ما فعلت شيئا سوى الصلاة لكى أعود اليك ان الله ، ياحبيبى رحيم لا ينسى عباده المحبين المخلصين الأوفياء البررة .. كم جاهدت وكم كافحت .. لكى أصل الى الشاطىء .. كانت الفرقة مضنية والبعد مريرا .. كنت أريدك .. أريد همساتك الحنون وصدرك الدافىء .. كنت اريد ضمة ذراعيك ، ومسة شفتيك .. وكنت أومن بك ، وبقوة الصلة التى تشد أحدنا الى الآخر .. فلم أدع اليأس يتطرق الى قلبى لحظة واحدة .. وقلت لنفسى انى عائدة اليك حتما .. وحملت الى الريح هتافك ودعاءك ، فشد من أزرى وقوى من عزيمتى ، حتى استطعت فى النهاية أن أصل اليك وأرتمى بين ذراعيك .

وضمها اليه بشدة كأنما يخشى أن تفلت منه مرة أخرى .

ومضت لحظة لم يعد يسمع فيها الا أنفاس تتردد فى سكون الليل .

وأطل القمر من كبد السماء ، فبدد السحب الداكنة وغمر المكان بأشعته الفضية ، فبدا ساحرا خلابا .. وهدأت الريح الا من نسمات رطبة رقيقة تمس وجهيهما برفق وحنان .

وتلفتت حولها ، مأخوذة بسحر الليل الساجىْ والقمر الفضى ، وهتفت به :

– هذا الشاطىء العجيب ! ما ظننته قط بتلك الروعة وذلك السحر . ليخيل لى أن كل ما نحن فيه لا يعدو أن يكون حلما !

وأسرع هو .. فألصق شفتيه بشفتيها وقبلها فى صوت مسموع ، وأجاب ضاحكا :

– أما زلت تصرين على أنه حلم !

– انى ..

ولكنها لم تتم حديثها .. فقد قطعه صوت يصيح بهما فى حدة :

– هاى .. أنت .. هناك !

وتلفتا فى دهشة الى مصدر الصوت ، فأبصرا شبحا ضئيل الحجم ، على قمة احدى الربى المطلة على الشاطىء .. وعاد الصوت يصيح متسائلا :

– هل أبصرتما رجلا يحمل على ظهره كيسا ضخما ؟

وأجابته بالنفى .. فأخذ يهبط تجاههما فى خطوات سريعة حتى وصل اليهما .. وبدا لهما من قرب ، حاد التقاطيع ، متوتر الأعصاب .. يضع على عينيه منظارا مذهب الاطار . وعاد الرجل يسأل فى نفس اللهجة الحادة الغاضبة :

– أى مكان هذا ؟

وأجابه صاحبها فى لهجة هادئة :

– جزيرة القدر .

– جزيرة القدر ؟ كفى عبثا .. لقد كنت فى طريقى الى «البنك» .. لعن الله هذا الضباب المتراكم .. لقد أضلنى الطريق .. ولكن أين ذهب هذا الأحمق بالكيس .. لعنة الله عليه .

ثم خفف من حدته ، وعاد يقول بلهجة ملؤها التوسل :

– أرجوكما .. اذا ما رأيتماه أن تبلغاه انى أبحث عنه وأن ينتظرنى هنا بجوار الشاطىء .

وسار الرجل فى خطوات متباطئة .. فاختفى وراء الربوة التى ظهر منها .

وأمسك صاحبها بيدها وضغط عليها برفق وهمس قائلا :

- والآن يا حبيبتى يجب أن نعود .

- نعود .. ولكننا لم نفعل بعد .. ما أتينا من أجله !

- لقد أخطأنا المكان .. لن نستطيع ان نعقد قراننا هنا . فانى لا أبصر سوى قفر فى قفر ، ولا أظن أن هناك مخلوقا واحدا يعيش هنا .

- أخطأنا المكان ؟ .. كيف ؟ .. انى اسمع صوت موسيقى .. انصت معى .. انها لاشك موسيقى عرسنا .

- لا .. لا أظن .. انها خدعة من تمويه الرياح .. أو هدير الأمواج .

وتأبطت ذراعه وبدأ سيرهما على الشاطىء .. وقالت وهى تحملق فيما حولها :

- هذا الضباب الكثيف قد كاد يضلنى عنك .. كما أضل الرجل عن صاحبه .. لا أدرى كيف استطعت الحضور .. ولا كيف استطعته أنت .. لقد كان لقاؤنا معجزة . وكان من المحتمل أن يظل أحدنا بمنأى عن الآخر .. ويضيع العمر سدى .

وفجأة أمسكت بذراعه .. وشدت عليه فى فزع وهمست قائلة .

- انى أرى شبحاآخر ، يقترب منا .. انه امرأة ؟

وانقشعت السحب مرة أخرى فكشف ضوء القمر عن امرأة تقترب فى هدوء وقد بدت عليها سيماء الأناقة ، وكست ملامحها الجميلة ابلغ آيات الحزن . وسألتها فى صوت مكتئب :

- ألم تبصرا زوجى ؟

وتملكتها الشفقة بالسيدة الحزينة فأجابتها مطمئنة اياها :

- أجل .. أجل .. انى أبصرته يختفى وراء تلك الربوة . لقد سألنا عن رجل يحمل كيسا ..

وهزت المرأة رأسها فى أسف وقالت :

– لا .. ليس هو .. لقد رأيت ذلك الذى تصفينه .. انه ليس زوجى .. انى مخلوقة شقية تعسة .. انى لن أستطيع العثور عليه .

وغادرتهما السيدة فى صمتها الحزين ، مطأطئة الرأس ، محنية الهامة ، كأنها تحمل عبئا يثقل كاهلها وينقض ظهرها .

وغاب شبح المرأة فى الظلمة .. وأحست هى بالحزن يسرى فى جوانحها .. وسألت صاحبها :

– ترى أين ذهب زوجها ؟ لقد كان من المحتمل أن أفقدك كما فقدت زوجها ، أما كان يجب علينا أن نساعدها فى البحث عنه يجب ألا نتركها هكذا ، انها امرأة تعسة .

– ولكن كيف ؟ كيف نبحث عنه .. ونحن لا نعرف حتى من يكون ؟ .

– يجب أن نعاونها بأى طريقة .

وأحست وهى تتحدث بشىء يشبه الغثيان ، وكأن هناك ما يجذبها الى الأرض ، وأمسكت بذراعه تتحامل عليه ، ثم أسندت رأسها على صدره ، وعادت تتحدث بصعوبة :

– ان المكان جميل .. رائع .. لم تريد أن نعود .. لم لا نمكث هنا .. انى متعبة .. وأحس بأطرافى تجمد وتتثاقل .. انى أخاف الأغماء .

وأحست به يضمها الى صدره .. وسمعت صوته يهمس فى أذنها :

– لابد ان تعودى يا حبيبتى ، يجب ان تتمالكى ، تعالى معى الآن .. حاولى .

– انى بخير .. ليس بى شىء .

ولكنها مع ذلك أحست بنفسها تتهاوى الى الرمال .. وعاد هو يهتف بها :

– انهضى يا حبيبتى ..

وحاول أن يرفعها بين يديه .. ولكنها قاومته قائلة :

- لا أستطيع .. ثم أنه ليس هناك داع لهذه العجلة .

وجلس بجوارها وأمسك وجهها يتحسسه برفق وأردفت هى قائلة :

- ان الرمال والموج تبعث فى ذاكرتى أول لقاء .. هل تتذكره . فى الصيف الماضى على شاطىء البحر .. وقد أخذنا نسبح معا تجاه الصخرة ! ..

- أجل .. أجل .. انى أتذكره .. ولكن لابد لنا من العودة .

- انى متعبة .. لاأستطيع .

وأحست فجأة بدمعه الساخن يمس صفحة وجهها فنظرت اليه فى دهش ، وهمت بأن تسأله عما يبكيه ولكنها لمحت شبح المرأة الشقراء الحزينة يمر من بعيد ، وأحست برغبة شديدة فى اللحاق بها كأن هناك شيئا خفيا يدفعها اليها وأخذت تتحامل على نفسها محاولة النهوض قائلة لصاحبها :

- لابد أن أساعدها .. انها مريضة .. انها لاتعرف الى اين هى ذاهبة .. أجل .. دعنى الحق بها .

ثم أخذت تعدو تجاه المرأة ، وهو يناديها ، حتى وصلت اليها وهى تسمع آهه يتردد بين الربى مليئا بالألم والحزن .

ومست ذراع المرأة ، وقالت لها فى حنان ورفق :

- لقد عدوت وراءك . انك لاتبدين بخير .. يجب أن تستريحى حتى أبحث لك عن زوجك .

- ما دمت أنا لم أستطع العثور عليه بعد أن بحثت طويلا .. فلن تستطيعى أنت ! ..

- ولكنه لابد أن يكون هنا ما دمت قد أتيت معه .

- انى لم آت معه .

وتملكها الدهش .. ولم تعرف ماذا تستطيع أن تفعل للمرأة وأحست بحاجتها الى معونة صاحبها وتلفتت حولها فاذا به على مقربة منها ، ولكنها لم تستطع ان تتميزه بوضوح وعادت تقول للمرأة :

– اذن فقد لا يكون هنا .. لم لا تعودين معنا .. انى أخشى تثاقل السحب والضباب مرة أخرى .. فلا تعودين تبصرين طريقك ! .

– وما فائدة العودة .. اذا لم أستطع العثور عليه ؟ .

– أرجوك .. أنت مريضة ، يجب أن تعودى معنا .

– لا .. لا .. انك لاتعرفين جلية الأمر .. كم وددت لو أكون مثلك .

– مثلى انا ؟ انى لاشىء .. أنا لا أملك من حطام الدنيا .. الا هو .. وحبه .

– وذلك هو ما أحسدك عليه .. هل هناك فى حياتنا أثمن من الحب .. انى لم أحس ما يعنيه زوجى بالنسبة الى حتى حدث ما حدث .. لقد كنت الليلة أوشك أن أفر مع رجل آخر ولقد فقدته فى ذلك الضباب المخيم ، وأحسست بفرط الوحدة والوحشة ، والحنين الى زوجى المحبوب .. ولكنى لا أستطيع أن أجده .

وأصابها عجب زائد من قول المرأة .

اذن فهذا هو سر المرأة الحزينة التعسة .. مسكينة .. لقد أضلها الشيطان فأضاعت زوجها .. وفكرت برهة ثم وجهت الحديث اليها قائلة :

– ياسيدتى انى أرثى لك ، يجب أن تعودى معنا سريعا فقد تهيىء لك العودة فرصة استرجاع زوجك ؟

– لا فائدة .. ما دام لم يعد لى .. فلا أظننى قد أصبحت أعنى شيئا لديه .. لقد تبدد حبى من قلبه .. انى استحق كل ما حدث .. لقد كنت انانية حمقاء .. ما حاولت قط أن احتفظ بحبه لى .

وأخفت المرأة وجهها فى راحتيها الرقيقتين .. واستغرقت فى البكاء .. وأخذت هى تهدىء من روعها .. قائلة فى رقة واستعطاف :

- لاتبكى .. انه سيعود اليك .. ما دمت تحبينه .. وتؤمنين بحبه .

وأحست برغبة جارفة فى أن تغرس فى نفسها بذور الاخلاص وتبث الوفاء ، وادركت ان ذلك هو الدافع الخفى الذى دفعها الى أن تتبع المرأة التعسة .. ولكنها أحست ، وهى تمسك بذراعها وتحاول أن تجد كلمات التشجيع التى تعينها بها ، ان ذلك الاحساس بالغثيان قد عاودها وبدا لها - وهى تتلهف على معونة المرأة - كأن هناك تيارا خفيا يوشك أن يجرفها معا فينزعها عن صاحبها .

واستطاعت ان تتمالك وتوجه الحديث للمرأة قائلة :

- قولى له انك تحبينه .. قوليها من قلبك .. حتى تصل الى قلبه .. وأجزم لك انه سيسمعك ويعود اليك .

وساد الصمت .. وأحست كأن التيار قد جرفها فعلا ولم تعد تستطيع السيطرة على حواسها ، وتملكتها رجفة سرت من قمة رأسها الى أخمص قدميها واحست انها تتهاوى .. لا الى الأرض .. بل الى أعماق بعيدة الغور .. لا قرار لها .. وخيل لها كأنها تسمع طرقات تدوى من بعيد ، وأخيرا استطاعت أن تميز صوت صاحبها يناديها فى خفوت .

وأجابت بصوت مبحوح متحشرج :

- انى آتية .. انى آتية .

ثم ساد سكون عميق . ولم تعد تشعر بما حولها .. لقد فقدته تماما . كما فقدت المرأة زوجها .

★ ★ ★

وعندما أفاقت وجدت رأسها تستند على صدره ووجدته يتحسس جبينها بحنان .. ثم تلفتت حولها فلمحت وجه امرأة عجوز تبتسم لها فى رفق وتقول :

- انت الآن أحسن .. قليل من الجهد .. ونستطيع أن نعود بك الى شاطىء النجاة .

واختفت العجوز .. وسارت هى متكئة على ذراعه حتى وصلا الى قارب يرسو على الشاطىء .. وكان أول ما لفت نظرها ذلك الرجل العجوز ، ذا المنظار المذهب ، وقد وقف فوق الربوة يحمل على ظهره كيسا ضخما يثقل كاهله ، ويكاد ينوء تحت حمله .

ولوحت له بيدها ، مشيرة له أن يهبط ليعود معهما فى القارب وصاحت به :

– أين صاحبك الذى كان يحمل الكيس ؟

– لم أجده .. ولكنى وجدت الكيس !

– ألا تريد أن ترحل معنا ؟

– لابد أن أصطحب الكيس معى .

– ولكننا لانستطيع أخذه .. أنه قد يغرق القارب ويغرقنا معه .

– لا أستطيع الرحيل بدونه .. انه حياتى .. انه أموالى التى انفقت فى جمعها عمرى .

وكان قد وصل اليهما فى تلك اللحظة ، وقد تساقط عرقه وتلاحقت انفاسه تحت وطأة الكيس .. ونظرت هى اليه باسمه ، وقالت فى صوتها الحالم :

– حياتك أفضل من الكيس .. ان على الأرض من الجمال والحب ما يعوضك عن كل ما فيه .. انه ينقض ظهرك ويشقى حياتك .. تعالى معنا .. وإلق به اليم ، أو بعثره على الربى أنك لن تستطيع أن تبتاع به شروق شمس ، أو حب قلب .

ولم يتردد الرجل لحظة واحدة .. بل سار الى اليم بخطى ثابتة ، فألقى فيه بالكيس ، وقفز الى القارب فى خفة الشباب وهو يقول لها :

– شكرا .. لقد اتحت لى فرصة النجاة .. كنت فى صباى أعبث فى مكان جميل كهذه الجزيرة .. كنت أحب الطبيعة ، وأحب الشعر .. ولكنى

غادرتها فى يوم ولم أعد اليها .. لقد شلغتنى عنها الحياة وجمع المال .. خمس وعشرون عاما .. وأنا أشبه بحمار فى ساقية أدور فيها معصوب العينين لا أبصر مما حولى شيئا .

لقد أزلت الغشاوة عن عينى . انى الآن أستطيع أن أرى الكثير مما لم أبصره من قبل .. أرى الجمال والحب والحياة .

وصمت الرجل ، وفجأة لاح شبح يقبل من فوق الربوة واستطاعت أن تتبين فيه المرأة الشقراء وهى تتحرك كالهائمة الضالة .. فهتفت بها من أعماق قلبها . وسمعت المرأة نداءه ، وأخذت تقترب من القارب رويدا رويدا حتى وقفت بجواره شاردة الذهن .. فصاحت بها :

– هيا .. أقسم لك أنك ستجدينه .. ما دمت تحبينه .. ان العثور عليه لايحتاج الا لحب وايمان .

وقفزت المرأة الى القارب .



وسار القارب فى هدوء ، وأسندت رأسها الى صدره .

ولاحت أمامها بارقة مضيئة فى وسط الظلمة بدت فى أول الأمر كأنها فنار فى وسط البحر .. ثم أخذت تحدق فيها فاذا بها مصباح كهربائى .. وتلفتت حولها فاذا بها ترقد على فراش فى حجرة وقد أمسك صاحبها يدها فاحتواها بين كفيه وسألته فى دهشة :

– أين القارب الذى كنا به ؟

واجابها فى بسمة رقيقة :

– لقد رسا بنا على شاطىء النجاة .

وحاولت ان تتقلب على جانبها فأحست بوخز فى ظهرها جعلها تتأوه .

ثم أبصرت ممرضة قد اتشحت بلباسها الأبيض تقبل عليها فتضع يدها على رأسها وتقول لها :

- أرجوك .. لاتتحركى .. ان الصدمة لاشك تؤلم ظهرك .. ولكن الحمى قد زالت والحمد لله .

وهزت رأسها ونظرت اليه متسائلة فى دهش :

- أية صدمة ؟ انى لا أذكر شيئا مما حدث .

- الا تذكرين ان الليلة موعد زواجنا ؟ لقد كنا نتنزه فى عربتى فى الجزيرة قبل أن نذهب الى البيت حيث أعدوا العدة لعقد قراننا ، ولكن العربة تصادمت مع عربة أخرى فى منحنى الطريق بجوار النادى الأهلى . الحمد لله لقد زال الخطر .

- ولكنى أذكر اننا كنا فى قارب .

- لاشك أنه كان حلما .

- ولكنك كنت معى دائما فى كل لحظة من لحظات الحلم .

- أحقا كنت معك ؟ . لقد جاهدت لكى أكون معك فعلا حتى أعيدك الى .

- انى لا أستطيع أن أتصور الحياة بدونك . انك حياتى .

وتسللت الممرضة الى الخارج ووقفت تتحدث مع ممرضة أخرى خرجت من الحجرة المجاورة . فسألتها الأخيرة :

- كيف حال مريضتك ؟

- لقد نجت .. ان الفضل له .. فهو لم يتركها لحظة واحدة يبدو لى انه هو الذى استطاع بفرط ايمانه واخلاصه أن يعيد اليها الحياة .. وأنت كيف حال مريضتك ؟

- لقد مضت عليها بضع ساعات وهى مستغرقة فى هذيانها لاتكف عن مناداة زوجها حتى حضر أخيرا . وقد تحسنت بعد ذلك كثيرا .

- أحقا أنها كانت فى العربة الأخرى مع الرجل المليونير ؟

– من يدرى ؟ قد تكون أصيبت هى وسائرة فى الطريق .. ان بعض الظن اثم ، وليس هناك من شاهد الحادث حتى يستطيع أن يجزم أين كانت .

– والرجل كيف حاله ؟

– كالجن الأزرق .. ان اصابته خفيفة .. وهو يضحك فى مرح ويتحدث عن الحب والجمال ، وقد وهب المستشفى بضعة آلاف من الجنيهات .. ويقول ان الغشاوة قد أزيلت عن عينيه .. وأنه يستطيع ان يرى الكثير مما لم يبصره من قبل .

★ ★ ★

شبح في فراش

خير للانسان أن يحب يومـا
ويموت بعده ، من أن يعيش دهرا
دون أن يطرق الحب قلبه .

الساعة التاسعة مساء .. وقد صفت العربات الفخمة صفا طويلا أمام قصر المرحوم على باشا عبد الرحيم بضاحية الزيتون .. كانت ليلة حافلة .. والقصر الكبير قد أخذ يزخر بما فيه .. وبدأ كأنه قد بعث من العدم .. وأنيرت أو جاؤه بعد طول ظلمة .. فقد رغبت الأم العجوز في أن تحتفى بـ «سناء» خطيبة ابنها «يحيى» التى اختارتها له ، والتى كانت تفضلها على غيرها من الفتيات .. لكمال عقلها ، ورقة خلقها .

وكان البيت أحد تلك القصور الشامخة العتيقة الواسعة الأرجاء ، الكثيرة السراديب ، الفسيحة الحجرات ، التى يحوى كل ركن فيها آية من آيات الفن ، ومثلا من أمثلة الغنى والثراء .

وكأن صوت الموسيقى يصل خافتا الى اذن الفتى الذى اضطجع فى عزلة عن الجمع فوق أحد المقاعد الطويلة وقد بدأ يحتسى الكأس الثانى من «الشيرى» وأخذ خياله يسبح بعيدا فى ظلمات الماضى وآمال المستقبل .

وأخذ يتمطى في كسل .. عندما هبت عليه رائحة عطر نفاذة ، من ذلك النوع الذى يخترق الأنف ، ثم يسرى منه الى بقية الجسد فاذا بالانسان قد اصابته نشوة وعرته هزة .

وتلفت حوله ليرى صاحبة العطر .. لأنه لم يشك فى أنها أنثى .. لأن العطر يكاد ينطق ليفسر عن نوع صاحبته . نعم كان يكاد يصيح : أفسحوا الطريق .. لامرأة رقيقة كنسيم الليل .. جميلة كأوهام الشاعر ، وأحلام الفنان .

ولكنه .. لدهشته .. لم ير ما يتبع الرائحة .. لقد نفذ العطر الى نفسه .. ولكن صاحبة العطر لم يكن لها وجود بعد .

ونهض من مقعده ، وتوجه الى أقصى الغرفة الفسيحة كأنها ملعب كرة ، فاذا بفتاة قد توكأت بذراعها على مكتبه الذى رصت فوقه بعض الكتب . وأخذت تقرأ فى أحدها .

أخذ الفتى بمنظر الفتاة ، فقد كانت غريبة عن البيت .. غريبة عن تلك الجماعة التي اكتظت بهم الحجرات . وتعجب الفتى ، فهو لم يرها فى خلال يومه الا الآن .. بل لم يرها فى حياته قط الا هذه اللحظة .

ومما زاد فى دهشته ان الفتاة على رشاقتها وجمالها ، وصغر سنها ، كانت ترتدى من الملابس ما لم يره الفتى من قبل الا فى تلك الصور الزيتية التي تملأ جدران البيت ، والتى تمثل آباءه وأجداده من قرون مضت .

وابتسمت الفتاة ، وقد ظهرت على وجهها سيماء الهدوء والسكينة ، ولم تكن تبدو عليها أى علامة للدهشة كما بدا على صاحبنا . وكان مظهرها مظهر من تتجول فى عقر دارها . وكأنها رأت الفتى قبل ذلك مئات المرات .

وخيل للفتى .. انها احدى صديقات ضيوفه . وأن بعقلها بعض الشذوذ . ولكنه ما كاد يحقق فى جسمها حتى صعق .

لقد كانت الفتاة شفافة .

لقد كان يرى كل شىء خلفها بوضوح .. كأن جسمها قد صنع من الزجاج . فقد رأى خلال جسمها الكتب التى رصت على المكتب ، ورأى المكتب نفسه وقد بدت تفاصيله واضحة جلية .

وسقط من يده الكأس ، وصدرت منه صرخة خافتة .

لقد سمع قبل ذلك اشاعات من أشباح تجوس خلال الدار . ولكنه لم يصدقها قط . وسخر منها أشد السخرية . وحتى لو كان قد تخيل أحيانا أن هناك أشباحا ، فانه قد تخيل أنها تجوس خلال الأقبية الرطبة المظلمة ، والسراديب الضيقة فى أسفل المنزل التى ملأتها العفونة . أما أن تظهر هذه الأشباح فى حجرة المطالعة . والبيت قد غص بالزوار . والموسيقى ترسل انغامها فى أرجائه . فذلك ما لم يخطر له قط على بال .

وفوق ذلك لم يكن صاحبنا يتخيل.هذه الأشباح والعفاريت الا فى صور بشعة لسفاكى الدماء الغلاظ الأكباد ، القساة القلوب أما أن تظهر تلك الأشباح فى صورة فتاة ، فتانة فتاكة فى عينيها سحر ، وفى شفتيها خمر .. فذلك هو ما لم يتصوره من قبل .

وكأنما سر الفتاة ارتباك الفتى ، فرنت بضحكة كموسيقى عذبة حلوة .. وأفاق الفتى لنفسه ، واسترد شجاعته ، وساءه أن يكون موضع سخرية من الفتاة حتى ولو كانت شبحا أو عفريتا .. ووجد أن الفتاة عزلاء ، كما تتراءى له ، لن تملك له ضرا ، حتى ولو كانت جنية . فهو جدير بسحقها بين اصابعه كفتات العيش ، لو حاولت أن تناله بأذى .

وأمكن للفتى بعد أن طمأن نفسه وتمالك أعصابه .. أن يرد على ضحكة الفتاة بضحكة ملؤها السخرية سائلا اياها :

– من تكون الزائرة الكريمة ؟ . وما سبب تشريفنا بهذه الزيارة .
– تقصد الزيارات ؟ . فما كانت هذه أول زيارة ولن تكون آخرها .
– سيان عندى : كانت زيارة أم زيارات .. إنما يهمنى هو أن أعرف من تكونين : وماذا تبغين ؟

– أما سؤالك عمن أكون ، فهو اتهام صريح لذكائك وفطنتك ، وتأكيد لضعف ذاكرتك ، لأنك لاشك قد رأيتنى مرارا فى عدة صور من تلك الصور المعلقة فى صالة الاستقبال ، فقد ظهرت فى بعضها وحيدة ، وفى البعض الآخر مع بقية العائلة . وعلى أية حال يمكننا أن نعتبر أنفسنا «أولاد عم» . أما سؤالك عما أريد : فذاك سؤال فى موضعه ، والواقع أنى جئت لأحذرك .

وسأل الفتى فى دهشة :

– تحذرينى ؟ أنا . وممن تحذرينى ؟

– من الفتاة التى ستتزوجها .. انى أود أن أنصحك ألا تتزوجها وأصر على نصيحتى .

– ولكن ما السبب والحب بيننا متبادل والفتاة جميلة الخلق والخلق ، ولاعيب بها ، الا اذا كنت تودين الوقيعة بيننا ، وتنوين افتراء الأكاذيب واختلاق الأراجيف . وعلى أية حال قولى فيها ما شئت ، فلن يضيرها ذلك شيئا ، لأنى أحبها وسأتزوجها بالرغم من كل شىء .

فضحكت الفتاة ضحكة ناعمة ثم أجابت :

– لا أكاذيب هنالك ، ولا أراجيف . لاتكن أبله . أنى أحذرك من الزواج بالفتاة . لا لشىء الا لأنك لا تحبها .

ولم يتمالك نفسه من القهقهة فى سخرية .

هذه الفتاة الصغيرة .. بل هذا الشبح الزجاجى العتيق .. تنبئه عن دخائل قلبه كأنها تعرفه أكثر مما يعرفه .. هذه الفتاة تدعى أنها تعرف اذا كان يحب أو لايحب أكثر مما يعرف هو عن نفسه .

– خير لك يابنية أن تكفى نفسك مشقة التدخل فى شئون الغير .. وأن تضيعى وقتك فى شىء أفضل من التنبؤ بما اذا ما كنت أحب أو لا أحب .

ونظرت الفتاة اليه نظرة شملته من أخمص قدميه الى أم رأسه وقالت بلهجة من ينصح طفلا غريرا بالكف عن لعبة ضارة :

– هذه الفتاة الباردة التافهة .. ماذا يحببك فيها ؟ هذه الفتاة الشبيهة بالتماثيل الجبس التى يصنعها مثال مبتدىء .

وبدأ الغضب يلوح على وجه الفتى .. فحاول تهدئة نفسه باشعال سيجارة .. وحاول أن يظهر للفتاة قلة اكتراثه بأحاديثها :

– هل تسمحين لى بالتدخين ؟

– لاشك فى أننى أسمح .. فاننى أحب التدخين .

وصمتت برهة ثم أردفت :

– كم كنت اتمنى أن يكون التدخين مباحا للسيدات فى عصرنا ، كما هو مباح فى عصركم .. انى ما زلت أذكر كيف حرمت من الطعام يوما بأكمله عقابا لى على محاولتى التدخين وأنا فى الثامنة من عمرى .. ولكننا خرجنا عن حديثنا الأصلى .. لعلك مقتنع الآن بأن الخطأ كل الخطأ فى زواجك بتلك الفتاة الجوفاء ، الخالية من كل شعور ، العاطلة من كل احساس .. انى لأتخيل صاحبتك وقد تسللت بها الى ركن بالحديقة ساكن ، الا من انفاس الهوى الصادرة من الأوراق الرقيقة الخضراء يحركها النسيم الهادىء ، فكأن كل منها قلب صب مدله : وضوء القمر قد تحرر من وراء الغيم .

وأنت قد ملأ الهوى قلبك وترنحت من العشق أعطافك وبدأت تطارحها الغرام . وهى .. هى .. آه منها .

ووجد الفتى نفسه قد جذبت الى حديث الفتاة ، وشعر كأنه فعلا فى ذلك الموقف الشاعرى الجميل .. وإذا به يسألها دون قصد :

– هى ؟ .. ما لها ؟

– هى أمامك كقطعة من اللحم البارد الذى تسمونه «البلوبيف» لايحرك قلبها ساكنا ، بل أغلب ظنى أنها لا تحمل فى صدرها قلبا البتة ، وقد تطلعت اليك بوجهها اللاشعورى ، فاذا بقصورك الشم قد انهارت من عليائها .. واذا بالموقف قد فقد سحره ، واذا بك تهبط من السماء الزرقاء الجميلة لتصدم بالأرض الصخرية السوداء ، فتتحطم أمانيك ، وتذهب أحلامك أدراج الرياح .

وشعر الفتى كأنما قد سقط فعلا .. وأحنقه أن الفتاة تتلاعب به مثل هذا التلاعب فصاح بها غاضبا :

– لقد أضعت وقتى فى الاستماع الى ترهاتك .. فأرجو أن تكفى عن زيارتى بعد الآن ، فنصيحتك لن تجد معى نفعا وأفضل لك أن تكفى نفسك مؤونة تحذيرى .

وهزت الفتاة رأسها آسفة وقالت :

- أنت وشأنك ، ولكن ثق أننى لن أتركك تتردى فى هاوية زواج بلا حب .. أنت أبله .. لأنك لم تذق طعم الحب .. هذا الذى تدعيه حبا .. لايمت للحب بصلة .

واختفت من أمامه فجأة كما ظهرت .. تاركة له عبق اريجها يملأ خياشيمه .

وغادر الفتى الغرفة الى حيث القوم قد جلسوا للمسامرة والرقص . وفى العشاء جلس الفتى فى مكانه ساهما واجما .. ورأسه ملىء بالتفكير فى هذا الشبح الرقيق الجميل .. وفيما قالت له الفتاة من نصح وتحذير .. وشعر أنه فى حاجة الى أن يفضى الى امرىء ما بدخيلة قلبه .. ويقص عليه القصة من اولها الى آخرها ، ولكنه خشى أن يسخر منه القوم ويظنونه قد ثمل .. وظل يستعرض فى مخيلته الأشخاص الذين يثق بهم ، فلم يجد هناك من يفضى اليه بالأمر خيرا من أمه .

وانتهى العشاء .. وصاحبنا مازال فى وجومه وقلقه ، وأخذ يتذكر ما قالته له الفتاة حرفا حرفا .. وعندما تذكر تشبيهها خطيبته «بالبلوبيف» لم يتمالك نفسه من الضحك .

ونظرت اليه خطيبته فى دهشة وقالت :

- هذه أول ضحكة تضحكها الليلة .. فلعل ما طاف برأسك يبقيك على مرحك بقية الليلة .. فلا تعود الى وجومك السابق .

وفجأة نهض الفتى وتوجه الى الفتاة وجذبها من ذراعها ، وقال للجميع :

- عن اذنكم .. سأسر لها حديثا يهمها بعض الشىء .

ودهشت الفتاة ، كما دهش القوم ، ولكن الفتى لم يأبه لهم .. بل اندفع الى الحديقة كمن انتوى أمر جللا .. .

وفى ركن تشابكت فيه الأغصان .. ركن أشبه بذلك الركن الذى وصفه الشبح فى حديثه .. وقف الاثنان وقد غمرهما ضوء القمر وتشبع جو المكان بالسحر والفتنة .. ونظر الفتى فى وجه صاحبته وقد تملكه الحب .. وسرت فى جسمه النشوة .. ثم قال هامسا :

- مارأيك فى أن نهرب سويا فى عربتى الى الاسكندرية حيث يتم زواجنا ، ونرشف معا كؤوس الحب فى مكان يملؤه الشعر والخيال .

ومد يده فلف الفتاة وجذبها نحو صدره وقبلها فى شوق .

ولكن الفتاة دفعته بيديها ، وتخلصت من ذراعيه ، وردت عليه غاضبة :

- أى جنون قد أصابك .. وأى سخافات تلك التى تحدثنى عنها .. أى هرب هذا الذى تريده .. وماذا يقول الناس عنا .. بل ماذا يقول أبى وأنت أدرى الناس .. أى نوع من الرجال هو .. ثم تخيل أن العربة تقف منا فى الطريق .. فأى مشكلة تكون قد ألقينا بأنفسنا فيها .. وهل هذا هو الأمر الهام الذى جذبتنى من وسط القوم وتركتهم يتحدثون عنا فى سخرية .

ووجد الفتى أن السحر قد ذهب ، والفتنة قد زالت .. وخبا لهيب قلبه ، ونظر الى صاحبته فاذا هى جافة باردة .

وفجأة تذكر «البلوبيف» .. وشعر لشدة الحنق على الفتاة الزجاجية الشفافة .. وأحس كأنه يرمى بآخر سهم فى جعبته ، فبدأ يرجو صاحبته :

- اذا كنت تعتقدين ان الفرار جنون .. فدعينا منه .. ولكن هل لديك مانع فى التعجيل بالزواج .. وليكن فى الأسبوع القادم مثلا ؟ . أرجوك ألا ترفضى .

- لا أدرى ماذا أصابك الليلة ؟ .. من المستحيل أن يتم الزواج فى الأسبوع القادم .. ولا حتى فى الشهر القادم .. فأنت تعلم أن الملابس .. و «الجهاز» لن يتم صنعهما الا بعد شهرين أو أكثر .. ولن يقبل أبى التعجيل بالزواج قط قبل أن تتم هذه الأشياء .. خصوصا أنه لا سبب للتعجيل .

وعاد الاثنان من الحديقة وافترقا وسط الجموع الراقصة .

وشعر الفتى بميل يدفعه الى الذهاب الى حجرة المكتبة مرة أخرى ، وجلس فى نفس المقعد ، وتمنى لو ظهر الشبح الجميل ثانية .

ولم تمض لحظة .. حتى هبت عليه رائحة العطر اياه .. واذا بالفتاة الشفافة أمامه وقد بدت آية فى الرشاقة والجمال .. واستندت بمرفقها الى المنضدة ثم ضحكت فى لين .. وقالت :

لقد فشلت التجربة .. وكنت أعلم سلفا انها فاشلة .. ياصاحبى ان الحياة هى الحب .. ولاشيء غير ذلك .. فان فقدت الحب فانك قد فقدت الحياة .. واذا عشت بغير حب فكأنك لم تعيش .. وخير للانسان أن يحب يوما ويموت بعده ، من أن يعيش دهرا دون أن يطرق الحب قلبه .. أنا أدرى بالحب منك .. فلقد مسنى الحب وأنا فى الخامسة عشرة وكان يد ساحر قد مستنى .. واذا بحياتى قد انقلبت من قطعة فحم سوداء .. الى جمرة حمراء ملتهبة .. فى جوفها ضوء وحولها ضوء .. وكان الذى احببت لم يزد على أن يكون كاتبا بسيطا فى دائرة أبى .. ولكنى كنت اذ أراه كأنى قد ملكت الدنيا والآخرة وفررت معه ولكنهم أمسكونى ووضعونى حبيسة فى الدار .. وعوملت ، كما يعامل أشد الناس اجراما .. ثم انتقوا لى زوجا .. ظنا منهم أن ذلك سيذهب عنى ما ظنوه طيشا ونزقا .. وفى ليلة الزفاف كنت أشعر كأنى أزف الى القبر .. لقد كنت حزينة يائسة .. كنت اتمنى الموت ولكنى لا أستطيعه ، فقد كنت أعامل كأننى أسيرة حرب ، ولكنى أخيرا استطعت أن أخلو لنفسى بضع لحظات تناولت فيها سما .. وفررت من الزفاف ومن الحياة .

وصمتت لحظة ، ثم أردفت فى صوت ملؤه الاحتقار والازدراء :

– أنت تتزوج هذه الفتاة .. يا للسخافة .. اياك أن تقدم على ذلك الزواج .. اياك أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. مع الفتاة التافهة السخيفة .

وقاطعها الفتى غاضبا :

–كفى عن هذا السب .. فسأتزوجها بالرغم من كل هذا .. ولن تزيدنى اهانتك لهالا تعلقا بها .

ولم تأبه الفتاة لمقاطعته :

– أنت الفتى الأمثل .. الفتى الجميل النبيل .. تتزوج هذه الأضحوكة .. كم يسوؤنى اننا لم نلتق في عصر واحد .. كم كنت أود لو خلقنا سويا .. بدلا من أن يكون بين أحدنا والآخر هذه الحقبة الطويلة من الزمن .. كم كنت أتمنى ان نلتقى جسدا بجسد لا جسدا بروح .. أو شبح .

وشعر الفتى ان الفتاة تقترب منه .. ثم أحس شيئا خفيفا قد مس شفتيه .. كأنه جناح فراش .. ثم اختفت الفتاة .

وانتهى القوم من سهرتهم وآب كل منهم الى فراشه ، ودخل الفتى مضجعه .. وشبح الفتاة لايفارق ذاكرته .. وخيل اليه أنه قد يراها فى مضجعه ..ولكنه لم ير أحدا .

وما كاد الفتى يغمض عينيه حتى سمع على الباب طرقا خفيفا .. فقفز من فراشه وفتح الباب وهو لايشك لحظة فى أن الطارق هو الفتاة العاشقة .. الساحرة الفاتنة .

ولكن الطارق لم يكن سوى خطيبته تسأله اذا كان لديه قرص من «الاسبرين» تذهب به عن رأسها صداعا أصابها .

وأجابها الفتى بالايجاب .. ولكنه وجد وجهها قد تغير فجأة وكساه احمرار الغضب .. فذهل وسألها عما بها فأجابته صارخة .

– تسألنى عما بى .. وفى فراشك امرأة .. هل رأى أحد أوقح منك مخلوقا .. انى لا أكاد أصدق عينى .

وكانت الفتاة تتكلم وهى تهتز من الغضب .. وصعق الفتى وأجاب فى دهشة :

– امرأة .. ماذا تعنين ؟

وتلفت حوله فاذا بالفتاة الجميلة الشفافة قد استلقت فى فراشه فى نوم عميق هادىء وبدت كأنها عروس فى ليلة زفافها . وتعجب الفتى ، فانه عندما قام من فراشه ليفتح الباب كان فراشه خاليا .

وأدرك الفتى ان الفتاة العابثة الماجنة قد أوقعته فى مشكلة كبرى .

وتلفت الى خطيبته وهو يكاد يجن وقال :

- انها ليست امرأة ؟ .. انها ليست بحقيقة ؟ هى لا تزيد عن أن تكون شبحا .. تقدمى وأمسكيها بيديك ان كنت تستطيعين انها لاشىء ..

ولكن الفتاة كان قد غلبها البكاء .. فنظرت اليه نظرة بغض ويأس وقالت ساخرة :

- وماذا يمكنك أن تعتذر به غير ذلك .. نعم .. انها شبح .

وعاد الفتى الى الفراش وهجم على الفتاة المستلقية به .. يود لو يمزقها اربا .. ولكنها كانت قد اختفت .

وعلم الفتى ان من المحال أن ينتظر من القوم أن يصدقوا الحقيقة .

وفى الصباح تسلل من البيت قبل ان تهب عليه الزوبعة .. وقبل أن يغادر الدار طرق أذنه صوت بكاء خطيبته وبكاء أمه .

★ ★ ★

وغاب الفتى عن بيته ثلاثة شهور .. علم خلالها ان خطيبته قد تزوجت .. وتوسلت له أمه أن يعود الى البيت فعاد .

ومرت الأيام ومحا الزمن القصة شيئا فشيئا .. فنساها القوم .. ولكن الفتى لم ينس قط شبح الفتاة الساخرة ..

وفى يوم من الأيام زارهم أحد أقاربهم البعيدين ، وكانت معه ابنته ، ورجا من الأم ان تنزل فتاته عندها حتى تتم دراستها فى أحد معاهد الفنون ، فأنزلتها الأم على الرحب والسعة .

ولم يمض أسبوعان على مجىء الفتاة حتى كان الزواج قد تم بينها وبين صاحبنا .. فقد جرفه حبها فلم يستطع عليها صبرا .. لقد قلب حياته من فحمة الى جمرة كما قال الشبح .

وأعجب ما فى الأمر ان الفتاة كانت كثيرة الميل الى ارتداء ذلك النوع من الملابس الذى كانت ترتديه الفتيات منذ قرون مضت .. ذلك النوع الذى كان الشبح يرتديه .

وما نظر اليها الفتى قط الا وتعجب من شدة شبهها بالفتاة الشفافة .. حتى أنه كان كثيرا ما يحتضنها لا لشىء الا ليتأكد من أنها حقيقة .

وفى ذات يوم كان والد الفتاة يشاهد الصور الزيتية المعلقة فى صالة الاستقبال ، فاستوقفت نظره احدى الصور .. ثم نادى الفتى وقال له ضاحكا وهو يشير الى الصورة :

– هذه هى صورة جدتى .. الا ترى أنها شديدة الشبه بزوجتك ؟

وحملق الفتى فى الصورة فقد كانت لنفس الشبح الجميل الذى زاره مرات عديدة والذى منعه من الزواج من خطيبته الأولى ..



صورة وروح

بدا لى أنها قد عزمت على شىء .. فقد أشارت الى بالاقتراب منها وقالت فى صوت ملؤه الثقة والحزم : اياك أن تعدل عن البناء وأذكر جيدا أننا عندما نلتقى فى الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

حدثنى صاحبى قال :

كان ذلك على ما أذكر فى سنة ١٩٣٦ .. وكنت أقطن حينذاك فى احدى الضواحى .. وكنت أهوى التصوير .. وخرجت ذات يوم لالتقط بعض الصور .. فساقتنى قدماى الى جهة نائية على شاطىء النهر ، وجدت بها بضعة رجال يحفرون فى بقعة من الأرض قد خططت كان هناك شروعا فى اقامة بناء عليها .. ووجدت كهلا قد انتحى ناحية من المكان جلس على حجر وهو يرقب الرجال الذين أخذت معاولهم فى الارتفاع والهبوط .

وألقيت التحية .. فألقى الرجال معاولهم وردوا بأحسن منها .. ولكن الكهل لم يجب بكلمة .. بل لم يبد عليه انه قد أحس وجودى .. وأعجب من ذاك أننى أبصرت شفتيه تغلقان وتفتحان وسمعت منه همسا خفيفا .

وعلمت من أحد الرجال ان الكهل هو صاحب قطعة الأرض التى يحفرون فيها أساسا لبيت .. وأنه دائم التحدث الى نفسه وأن حديثه الى نفسه يشغله كثيرا عن الالتفات الى غيره . وأنه يقضى يومه جالسا على الحجر يرقبهم ، وقد شرد ذهنه وأخذ يتمتم لنفسه بين حين وآخر بكلمات غير مفهومة .

ونظرت الى الرجل فوجدته اقرب مايكون الى اولئك الذين تراهم يحملون المجامر أمام الجنازات .. بتلك البذلة الحائلة اللون ، البالية النسيج .. التى ضمت فى حناياها جسدا ضامرا ذاويا .. من ذلك النوع الذى قيل فيه «لو توكأت عليه لانهدم» أما طربوشه فقد انزلق من على رأسه وارتكز على أذنيه .. اذ لم يعترف برأسه كقاعدة فجاوزها الى أقرب مستقر .. وبدت عيناه غائرتين ذابلتين استبدل فيهما بالبياض صفرة مشوبة بحمرة .. وتهدل شاربه الأشيب فغطى تجاعيد فمه .

وعدت الى الدار وكدت انسى الرجل حتى حملتنى قدماى مرة أخرى بعد بضعة أيام الى نفس المكان ، فوجدت الرجال قد بدأوا فى البناء .. وبحثت عن الرجل فى الموضع الذى رأيته فيه فى المرة السابقة ، فلم أجده .. فيممت وجهى شطر الشاطىء ووقفت أرقب النهر وقد انعكست عليه أشعة الشمس فبدا منه بريق ذهبى عجيب .. وأغرتنى الوحدة والسكون باطالة التأمل .. حتى سمعت فجأة صوتا يتحدث .. فأخذت من الصوت اذ كنت أظن أنى وحيد فى ذلك المكان وتلفت يمنة ويسرة ، فاذا بى ألمح الرجل الكهل وقد اتكأ بظهره على شجرة ضخمة أخفت جسده الضامر عن عينى .. وسبح هو الآخر ببصره فى النهر وبدأ يحدث نفسه كما كان يفعل فى المرة السابقة .. ولكن صوته فى هذه المرة كان جليا واضحا ، وكان يبدو كأنه قد اشتبك فى جدال .. واستطعت أن أميز صوته بسهولة وهو يقول فى شىء من الحدة :

– ولكننى قلت لك انى لايمكننى الاستمرار فى هذا العمل المضنى !

وران السكون برهة كأن هناك شخصا خفيا يحاوره .. ثم سمعته يقول :

– أجل .. ولكن استمعى الى .

ثم خافت الرجل من صوته حتى لم أعد أسمعه ، وبدا لى من حركاته أنه يحاول اقناع من لاتريد أن تقتنع .. وشعرت بغيظ شديد .. ووجدتنى أهم بأن أصيح بالرجل أن يرفع صوته لولا اننى رأيته وقد شاع فى وجهه الغضب وأبصرته يدفع رقبته المعروقة الى الأمام ويقول حانقا :

– لن استمع اليك بعد الآن .. كفانى ما مضى .

ومضت فترة صمت قصيرة .. ورأيت غضب الرجل ينفثىء فجأة ، وأبصرت رأسه يسقط على صدره كأنه طفل نادم مستغفر ثم سمعته يغمغم بصوت ملؤه الرفق والحنان :

– آسف يا عزيزتى .. سأفعل كل ما تريدين .

وهنا كان قد بلغ بى حب الاستطلاع أشده .. فعزمت على أن أستطلع سر الرجل بأية وسيلة .. وأخذت أقترب منه ثم حييته فى أدب ورقة .

وفزع الرجل فى بادىء الأمر اذ لم يتوقع أن يبصر أحدا بجواره ، ولكنى كسوت وجهى كل ما استطعت من مظاهر المودة والصداقة حتى أبعث الطمأنينة فى نفسه وقلت له مترفقا :

– هل يسمح سيدى أن التقط له صورة وهو يتأمل النهر ؟ .

ولم أكن أقصد بسؤالى أن أصوره فعلا . لأننى – أولا – لم أتوقع من رجل فى مثل هذا الشذوذ أن يقبل التصوير بسهولة .. وثانيا – لأنه لم يكن به من المزايا ما يجعلنى أتلهف على تصويره .. ولكنى أردت بسؤالى أن أجعل لى منفذا الى نفس الرجل حتى أستطيع استدراجه للحديث .

ولشدة دهشى رأيت الرجل – بعد أن تردد برهة قصيرة ، يبتسم فى سرور ، ثم أخذ يتحسس رباط رقبته ويصلح طربوشه فيثبته على احدى أذنيه ، ويمر بأصابعه على شاربه المتهدل ، ثم يشد سترته الى أسفل . ويقف وقفة المتأهب للتصوير قائلا أيعجبك هذا ؟

– جدا ..

وسرعان ما التقطت الصورة ، ثم أقبلت على الرجل أجاذبه أطراف الحديث ، ولم تكن هناك مشقة فى استدراج الرجل للحديث .. بل على النقيض .. لقد بدا لى أن الرجل قد اختزن فى صدره أحاديث أعوام ، وأن الفرصة قد سنحت له بمستمع طيب ليفرغ له كل ما فى جعبته .

وعلمت منه أنه كان موظفا بوزارة الأوقاف .. وانه قضى حياته قانعا بوظيفته المتواضعة بين أكداس الملفات ، وانه لم يطمع قط فى أكثر منها .. فقد كان مرتبها الضئيل يهيىء له الحياة الهادئة البسيطة التى تعود أن يحياها فى شقته المتواضعة بحى البغالة .

ولكن امرأته – كما بدا لى من حديثه – لم تكن مثله من ذلك النوع القانع الراضى ، بل كان بنفسها طموح ، وبروحها لهفة على حياة أفضل ، وعلى الخروج من تلك الشقة الرطبة المظلمة فى هذا الحى الخامل .

وأخيرا سنحت لها الفرصة التى تستطيع بها تحقيق أمنيتها وارضاء نفسها الطموح .. وبدا لها شعاع من نور يضىء حياتها القاتمة ، عندما علمت أن قريبا لها قد توفى فأورثها قطعة أرض فى احدى الضواحى .

أحست المرأة وقتذاك أن آمالها قد هبطت عن محيط الأوهام والأحلام .. وأنها قد باتت فى عداد الرغبات التى لا يصعب تحقيقها .

منذ ذلك اليوم صممت فى نفسها على أن توفر كل دانق يمكنها ادخاره حتى تستطيع فى النهاية أن تجمع مبلغا تشيد به بيتا على قطعة الأرض التى ورثتها .

ووصف لى الرجل تلك السنين الطويلة التى مرت به بعد ذلك ، ومبلغ ما كان يصيبه من ضيق وتبرم من ذلك الاقتصاد الذى أمعنت فيه المرأة ما وكيف كانت تمر بهما الأسابيع ، فلا يذوقون الا «الجبن» أو «الفول» كى تستطيع أن تجمع القروش من هنا ومن هناك .. وكيف حرمت عليه الذهاب الى المقهى الذى تعود أن يقضى فيه أوقات فراغه ، حتى تدخر الدريهمات التى يصرفها هناك .. وذكر لى كيف قاطعت صاحباتها حتى لا تظهر أمامهن بتلك الثياب الباهتة البالية التى لم تحاول أن تجددها منذ أن بدأت التوفير .

ثم رأيته يدفع يده فى جيبه ويخرج من محفظته الجلد صورة صغيرة قدمها الى قائلا :

- هاك صورتها .

وتأملت الصورة فوجدتها لامرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال .. اتشحت بشال أسود من الحرير ، ولم يكن بها كثير من فتنة أو أنوثة .. ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء ، وقوة العزيمة ، وأعدت الصورة الى الرجل وبعد برهة عاود حديثه قائلا :

- ولم يطل بنا الأمر كثيرا .. فقد استطعنا بعد بضع سنوات أن نجمع مبلغا من المال يكفى لأن نبدأ البناء على أن ندفع الباقى على عدة سنين .

وعثرنا أخيرا على المقاول الذى قبل أن يقوم بعملية البناء وتم بيننا الاتفاق .

وذات يوم ذهبنا فى صحبة الرجل لنريه الأرض ، وأصرت هى على الحضور معنا رغم ذلك التوعك الذى أصابها نتيجة برد خفيف ، وعرضت عليها أن تؤجر عربة تحملنا من محطة السكة الحديد الى قطعة الأرض ولكنها نظرت الى نظرتها الى مجنون وأصرت على أن نسير على الأقدام .

وعندما عدنا الى البيت .. كان التوعك الذى بها قد اشتد وانقلب ذلك البرد الخفيف فى يوم وليلة الى التهاب رئوى . ولا أطيل عليك الحديث فقد ماتت بعد بضعة أيام .

وصمت الرجل برهة ثم أردف هامسا فى اهتمام :

- لقد كانت تقاوم الموت مقاومة شديدة لأنها لم تكن تريد أن تموت ، وظلت فى نضالها حتى لفظت آخر أنفاسها . وكنت أسمعها تردد من حين لآخر : «يا الهى .. اننى أريد البقاء» . ثم رأيتها تصمت فجأة ويبدو فى عينيها بريق عجيب .

وخيل الى انها قد أدركت وقتئذ أن لا فائدة من الاصرار على البقاء ، وأنها أحست أن الله قد اختارها بجواره ، وبدا لى أنها قد عزمت على شىء ..

فقد أشارت الى بالاقتراب منها وقالت فى صوت ملوه الثقة والحزم : اياك أن تعدل عن البناء ، وأذكر جيدا أننا عندما نلتقى فى الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

وصمت الرجل ، ثم رأيته يربت على ساقى برفق ويرفع حاجبيه ويهز رأسه هزات خفيفة كأن فيه شيئا يربكه ، ويقول متعجبا :

– ولكن الشىء الذى لم تذكره لى وقتئذ ، هو أنها سترافقنى طيلة عملية البناء !

ونظرت الى الرجل في دهشة ، ولم أدر بالضبط ما يقصد بقوله .. ترى هل دفن المرأة فى قطعة الأرض .. أم هو يقصد أنها ترافقه بروحها ؟

واستمر الرجل فى حديثه قائلا :

– فى كل دقيقة .. بل فى كل ثانية.. أجدها بجوارى لاتفارقنى لحظة واحدة .. حتى الآن أراها قد وقفت خلفنا تنصت لحديثنا .

ووددت لو أدرت رأسي بسرعة الى الخلف لأتأكد من أنه ليس هناك من يقف وراءنا .. لكنى كنت أحس بشىء من الخوف جعلنى لا أحول بصرى عن الرجل الذى استطرد يقول :

– انا أعرف فيم تفكر .. فلا مراء فى انك تتهمنى بالجنون ، أو تظننى أتوهم رؤية الأشباح .

– أبدا .. أبدا .. كل ما فى الأمر أن لديك قوة تخيل عجيبة !

– قوة تخيل ؟ موظف يقضى أربعين سنة فى ظلمات وزارة الأوقاف تكون لديه قوة تخيل ؟ لا .. لا ياسيدى أنى أراها تماما كما كنت أراها فى الدار ، وأخاطبها وتخاطبنى .

لقد ضقت ذرعا بالبناء .. حتى لقد فقدت أعصابى منذ لحظات عندما انتابتنى نوبة من الغضب ، فأنبأتها أنى لن أستمر فى هذه العملية المرهقة ، وانى قانع بحى البغالة ، ولكنى رأيتها تبكى .. فندمت على ما فرط منى ، واعتذرت لها عن حماقتى .

والتفت خلفه قائلا :

- لا أظنك غاضبة على الآن يا حبيبتى ؟

وهنا أحسست أنى لم أعد أحتمل .. فقد شملنى خوف شديد من الرجل المعتوه وامرأته الموهومة .

وسادت بيننا فترة صمت كنت خلالها أحدق البصر فيما حولى .. وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع .

وغادرت الرجل دون ان التفت خلفى ، فقد كان بى خوف شديد .

وعدت الى الدار ولم أحاول بعد ذلك أن أطرق المكان أو أقابل الرجل .

والى هنا انتهت قصة الرجل .. أو على الأصح كادت تنتهى .. فقد بقى منها جزء قصير .. يتعلق بالصورة التى التقطتها له . فعندما انتهيت من تحميض (الفيلم) وطبعه .. رأيت شيئا عجيبا .

ان الرجل لم يكن وحيدا فى الصورة ، فقد كان بجواره امرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال ، قد اتشحت بشال من الحرير الأسود ، ولم يكن بالمرأة كثير من فتنة أو أنوثة ، ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء وقوة العزيمة !

★ ★ ★

معجزة كبرى

.ولم أشك أن الدواء الذى كتبه الطبيب لم يكن الا مجرد (سد خانة) ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره ، باحثا عنه فى الصيدليات التى وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكنى لم أجد له أثرا .

سيدى العزيز ترددت كثيرا ، قبل أن أكتب اليك . أولا لأنك لاتعرفنى ، وثانيا لأنى لا أستطيع أن أحدد بالضبط مطلبى منك ، ورجائى من الكتابة اليك ، لأننى لست فى حاجة الى شىء .. حتى هذا العزاء الذى تعودت أن تهبه لقرائك المحزونين .. لست أرانى فى حاجة اليه ، فقد انصرم العمر ، فشفت الأيام قرحى وبرأت جرحى .. اللهم الا أثرا لا أظنه بزائل حتى أزول أنا وتزول الحياة .

ولكن شيئا واحدا هو الذى اتلهف عليه .. وهو تفسير لأمر أعيانى تفسيره .. تفسير عملى لايتعارض مع اعتقاداتنا فى هذه الحياة .. ولا يجعلها تتطاير من رؤوسنا فتذهب مع الريح .. وتتركنا حائرين بين الشك واليقين .. تفسير يقنع كهلا مثلى قد اشرف على الهزيع الأخير من عمره ، ولم تعد لديه القدرة على تعلم طرق جديدة للتفكير .. هل فهمت ياسيدى ؟

لنعد القهقرى الى أيام خلت وزمن ولى .. عندما كنت فى مقتبل العمر وفى أول عهد بالزواج .. أن مجرد الذكرى تبعث فى رأسى نشوة ، وفى جسدى هزة كأنها أغنية تطوف بأذنى فيخفق لها القلب ، أو شذى عطر ينفذ الى أنفى فيهفو له الفؤاد .. عندما أنجبنا طفلتنا الأولى .. «نادية» .. وعندما ظننا أن أخا سيتبعها أو أختا .. ولكن السنة مرت تلو السنة دون أن نرزق سواها ، ويخيل الى أن ذلك قد دفعنا الى الشغف بالطفلة وتدليلها الى حد «الاتلاف» .. أو هذا على الأقل ما يتهم به أبوان ملأتهما اللهفة على ابنة وحيدة .. ولكنى لم أك أفهم قط معنى أن «يتلف» الطفل أو كيف «يتلف» ، لأننى من نوع مرهف الحس .. لا أعتقد أن تلف الطفل يمكن أن يتأتى الا بضربة أو نهره أو ايلام نفسه أو تحطيم روحه أو حرمانه ، أو أرهابه .. أما بحبه ، أو الاسراف فى حبه .. فلا أظن .. بل اننى لا أفهم معنى أن يقال «اسراف فى الحب» .. بينما الحب لايمكن أن يكون الا اسرافا .. والا ما كان حبا .

اننا قطعا أحببناها أكثر مما نحب أى شىء آخر فى الحياة .. أكثر من نفسينا .. ولن أحاول أن أصفها لك .. فلا أظننى أستطيع أن أرسم فى ذهنك صورة صادقة عن عذوبتها وحلاوتها .. ولكن ثق ياسيدى بأنها كانت مخلوقا محبوبا ، ببراءتها ، وطهارتها وبتفكيرها الساذج ، ومطالبها التافهة .. بضحكاتها وبكائها .. ومرحها ولهوها .. بعينيها الخضراوين ، وشعرها الأصفر الملتف فى حلقات ذهبية .. بأنفها القصير الدقيق ، وشفتيها الرقيقتين .. كل شىء فيها كان جميلا محببا .

وأضحت الطفلة محور حياتنا .. وكنت اذ ذاك موظفا فى السكة الحديدية فى احدى بلدان الوجه البحرى ، وكنا نقطن بيتا صغيرا ذا حديقة غناء فياحة . وكانت حياتنا هادئة ناعمة . فلا أكاد أنتهى من العمل حتى أعود الى الدار .. وبى شوق الى كل ما فيها .. ويمر بنا الوقت وقد غمر ثلاثتنا فيض من السعادة .. نلهو بالطفلة وتلهو بنا .. أقص عليها قصصا عن «الفيل أبو زلومة» وعن «أبو طرطور» .. وتصحح هى أخطائى ان أخطأت .. وتذكرنى ان نسيت .. وتستفسر عن أشياء لم تفهمها بعد .. ثم تمتطى كتفى .. ونذهب

الى اللعب في الحديقة .. أية حياة هانئة كنت أحياها وقتذاك ! ما تذكرت سحابة واحدة خيمت فى سمائنا .. ولا شاب صفونا كدر ولا شائبة .

كنت وقتذاك موظفا صغيرا .. ولكن مرتبى كان يفى بكل حاجاتنا .. بل كان يزيد حتى يفى بالكثير من الكماليات . ففى يوم الميلاد الرابع للطفلة أقبلت على الدار وفى يدى لفافة كبيرة .. وكانت قد تعودت ان تلقانى بلهفة وفرح .. وبسؤال يقفز على شفتيها «جبت لى ايه ؟» . ولذا فقد كنت دائما احضر شيئا .. أى شىء .. قطعة من «الشيكولاته» «لبان انجليزى» .. «مصاصة» .. أى شىء كان يرضيها .. ما دمت قد تذكرتها وأحضرته .. وفى ذلك اليوم أردت أن أفاجئها مفاجأة سارة .. فابتعت لها «عروسة» كبيرة تغمض عينيها حينما ترقد .. وابتعت لها فراشا كاملا مزركشا ، وكلفنى ذلك ما يقرب من الثلاثة جنيهات كنت قد استطعت أن أوفرها منذ بضعة أشهر استعدادا لهذا اليوم . ولاشك أنك تعرف ياسيدى قيمة الثلاثة جنيهات فى ذلك الزمن .. وقيمتها بالنسبة لمرتب موظف صغير مثلى .

كانت فرحة الطفلة «بالعروسة والفراش» فرحة أشعرتنى بأن الجنيهات الثلاثة لم تذهب سدى .. ثلاثة جنيهات ؟ .. ما أتفهها ! ان العالم كله لايساوى عندى فرحتها حينذاك .. لقد أمسكتها برفق . ثم ربتت عليها بحنان .. ووضعت فوقها الغطاء .. ثم قالت لى هامسة : «لندعها الآن تستريح .. فهى لاشك متعبة» .

ولم أكن أظن قط أن «العروسة» الجديدة – أو «سوسو» كما سمتها – ستشغلها الى هذا الحد .. وتكلفها كل هذا الاهتمام الجدى .. فقد اعتبرتها مخلوقا حيا .. فى حاجة الى كل ما تحتاجه هى .. وكانت ترقدها فى الليل بجوارها .. وكم كان يطربنى أن أرقبها .. وهى تتصرف مع اللعبة .. تماما كما تتصرف أمها معها .. مقلدة اياها فى كل شىء .. وفى كل كلمة .. تحملها على كتفها ، وتمثل كأنها تغسل لها وجهها ، وتغير ملابسها وتطعمها ، وعندما آوى فى الظهيرة الى الفراش كنت أبصرها وهى تشير اليها بسبابتها محذرة : «سوسو بابا نام .. اياك والبكاء» .

وفى ذات يوم سألتنى «نادية» أن أحضر لها فراشا آخر صغيرا .. فسألتها مداعبا : «فراشا وعروسه ؟» .. ولكنها هزت رأسها قائلة :

- لا .. لا .. فراشا فقط .

ثم اقتربت منى وهمست فى أذنى انها تريد الفراش للطفل الجديد «ابن سوسو» .

ولم أتمالك من الضحك .. وفى اليوم التالى أحضرت لها فراشا صغيرا .. فوضعته بجوار الأول .. وفى الصباح وجدتها تضع أصبعها على شفتيها لكيلا أحدث حركة توقظ «النونو» ثم سحبتنى من يدى حتى وقفنا أمام الفراش الصغير ورفعت الغطاء عنه بخفة ثم قالت بصوت خفيض : «انه بنت» وبعد أن ابديت اعجابى سألتها عن اسمها فأجابت انها ليست بحاجة الى اسم فهى مجرد «نونو» .

وكنا نظن أنها سرعان ماتنسى ذلك المخلوق الوهمى وتطالب باحضار طفلة صغيرة لتضعها فى الفراش الصغير بجوار «سوسو» ، ولكنها لم تفعل ، بل استمرت تعامله على أنه شىء ملموس توقظه وتدلله وتحميه تماما كما تفعل بأمه .

وفى ذات يوم – أظنه فى شهر سبتمبر – خيم علينا الظلام ونحن نلهو فى الحديقة ، وأحسسنا بالجو شيئا من الرطوبة ، فدخلنا الدار .. وفى الصباح التالى شكت الطفلة ألما خفيفا فى حلقها .. وبدت عليها تلك «الدعبلة» التى تبدو على الأطفال اذا غشيهم مرض أوهم .. واستمرت مستلقية فى الفراش . وبدا لى أن الأمر لايزيد على برد خفيف لايبعث على القلق ، اذ لم يكن بها أى ارتفاع فى درجة الحرارة .

ولم يدر بخلدنا قط أن الطفلة مريضة .. أو أن المسألة تستوجب استدعاء طبيب ، خاصة وأن التحسن بدا عليها فى نهاية اليوم عندما أخذت تستمع الى القصص التى أخذت أقصها عليها ، وتشاهد الرسوم التى رسمتها لها ، ولكن عندما أقبل المساء بدا عليها شىء من التعب وارتفعت حرارتها قليلا وتقايأت كوب اللبن الذى أعطيناها اياه ، وبدأت تشكو من ألم فى الصدر .

وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك ما يدعو الى الفزع ، فقد كانت فى تمام صحتها ، وكانت تضحك عندما أحاول أضحاكها . ولولا ذلك الألم البسيط ، الذى كان يذهب ويجىء لما كان هناك ما تشكو منه . ولكن لم تمض فترة من الوقت حتى بدأت أحس تغييرا طرأ عليها ، ورأيت جفنيها يتثاقلان وخبا بريق عينيها .

وأصابنا الفزع .. وخيل الى أن قلبى يهوى فى جوفى .. وقلت لزوجتى : «ان نظراتها لا تعجبنى ، وسأذهب لاحضار الطبيب» ، وحتى حينذاك لم أكن أحس بعد أن المسألة قد بلغت دور الخطورة .



تصور ياسيدى بعد كل تلك السنين التى انصرمت والتى كانت كفيلة بأن تضع بيننا وبين الماضى جدارا سميكة من النسيان .. وبعد أربعين عاما تغير فيها كل شىء .. ما زلت أحس بقلبى يعصره الألم .. وبدمع عينى يراودها على الانهمار كلما تذكرت تلك الساعات القلائل التى قضيناها بعد أن حضر الطبيب .. وعندما تبينا من نظراته مدى ما فى المسألة من خطورة .

لا أكثر عليك القول ياسيدى .. لأنى ما قصدت بكتابتى اليك أن أحملك آلاما ، أدعو الله من قلبى الا يصاب بها انسان .. لقد ماتت الطفلة قبيل الفجر .. ولم أصدق أنها ماتت فى بادىء الأمر .. اذ كان يبدو لى موتها بعيدا .. ولم يستطع ذهنى المرهق المكدود أن يسلم بأنها ذهبت الى غير رجعة .. فهذا شىء لايمكن أن يكون حقيقة ، وحتى بعد أن رقدت فى جدثها وعدنا الى الدار الموحشة الصامتة لم نكن نصدق انها ماتت .. وقع اقدامها .. صوتها .. ضحكاتها .. مازلت أحس بكل ذلك يملأ الدار الخرساء .. ومازلت أتوقع بين آن وآخر أن أراها مقبلة على بلهفة واشتياق ، وعلى شفتيها سؤالها التقليدى الطريف : «جبت لى أيه ؟» .

وحتى يومنا هذا ما زالت تطاردنى مرارة الأسابيع والأشهر التى أعقبت موتها .. ماذا تستطيع أن تفعل كلمات العزاء بقلوب كليمة مجروحة .. وأنى لقطرات الدمع أن تطفىء نارا تستعر فى الجوانح وتتأجج بين الضلوع .

وبعد فترة نقلت الى القاهرة .. ثم مضى العام تلو العام ولم أعد بعد موظفا صغيرا .. بل أصبحت ذا مرتب محترم .. وبعد أربع سنوات رزقت بابنتى الثانية «سامية» .. وسرعان ما نمت حتى أضحت طفلة جميلة كأختها الراحلة .. وان كان جمالها من نوع آخر .. نوع رقيق الجسد ، دقيق التقاطيع ، أسود العينين ، حالك الشعر .

وقد اتفقت وأمها على الا نذكر لها شيئا عن «نادية» ، معتقدين أن من الخير أن نبعد عنها أمثال تلك الحقائق الكريهة ، ولاشك أننا كنا مخطئين فان الموت ليس أكثر من نتيجة .. نتيجة طبيعية محتومة .. قد تكون آجلة أو عاجلة .. ولكنها لابد واقعة .. فلم نرتاع منها ومن التفكير فيها ؟ لاتؤاخذنى ياسيدى .. هذه فلسفة عقيمة .. لايمكن وضعها الا على أطراف الألسن .. أما فى قرارات النفوس فلا موضع لها .

وهكذا مرت الأيام والطفلة لاتشعر الا أنها أول من أنجبنا .. وعندما بلغت الرابعة وأقبل عيد ميلادها سألتنى أن أحضر لها عروسا تغمض عينيها وفراشا ترقدها فيه ، فأحضرت لها ما طلبت .. وخيل الى أن الأيام تعيد نفسها .. فقد أقبلت «سامية» على العروس تنومها وتدللها وتغنى لها .. تماما كما كانت تفعل أختها .. من قبل .

وبعد بضعة أيام وجدتها تسألنى أن أحضر لها عروسا أخرى .. ولست أدرى ما الذى جعلنى أسألها عما اذا كانت تقصد فراشا آخر ، ولكنها هزت رأسها وأفهمتنى أنها تريد عروسا وفراشها حتى تؤنس عروستها الأولى .

ولم أكن أستطيع أن أرفض لها طلبا فأحضرت عروسا وفراشا آخرين وضعتهما بجانب الأولين .. ولم تمض بضعة أيام حتى لاحظت أنها بدأت تضع دميتيها فى فراش واحد وتترك الفراش الآخر خاليا .. وتكرر منها ذلك .. فسألتها ضاحكا عما يدعوها لذلك الأمر ، فأوضحت لى أنها تعد الفراش للطفل الذى يوشك أن يولد .. وفى الصباح التالى وجدتها تضع سبابتها على شفتيها آمرة اياى الا أحدث ضجة لئلا أوقظ «النونو» ، ثم سحبتنى من يدى وأوقفتنى أمام الفراش الصغير الخالى وأزاحت الستار هامسة : «انه بنت» .

أية ذكريات هاجعة أيقظتها الطفلة فى قلبى ، وأى أحساس بالخوف سرى وقتذاك فى نفسى .. لقد صمت برهة ثم قلت لها فى رفق : «جميلة جدا يا حبيبتى .. ما اسمها ؟» . واجابتنى الطفلة بسرعة دون كثير تفكير : «نادية .. اليس اسما جميلا» ولم أجب ، فقد كنت فى حال لاتسمح لى بالكلام .. لقد قلت لك انى رجل مرهف الحس .. وكان الأمر أكثر مما أتوقع ومما أحتمل .

ومضت بضعة أشهر ثم مرضت الطفلة .. وبعد دقائق معدودات كان الطبيب بجوارها .. وقد أمرنا بألا نتركها تغادر الفراش وأن نعطيها من اللبن قدر ما تستطيع أن تشرب وأخبرنا أنه سينبئنا بالنتيجة بعد التحليل ، وفى المساء أخبرنا أنها مصابة بالدفتريا .

وسأمر عابرا بالأيام الثقيلة التى تلت ذلك .. فلست أنكر الكثير عما حدث بها .. اذ كان يخيل لى أنى كنت أعيش وسط ضباب كثيف اشاهد تلك المعركة التى كانت تدور بين ابنتى وبين الموت .. وأنا مكتوف اليدين لا أملك سوى الصبر والانتظار .. حتى كان ذات يوم بدا لى فيه أن الطفلة العزيزة على وشك أن تخسر المعركة .. وحضر الطبيب فى ذلك المساء .. وبعد أن مكث ربع ساعة انتحى بى جانبا وأنبأنى أنه لم يعد فى وسعه شىء .. وأننى يجب أن أتوقع الأسوأ . ثم كتب لى اسم دواء وطلب منى احضاره قائلا : «انه مجرد محاولة قد تعيد الينا بعض الأمل» . وانصرف على أن يعود الينا قبل منتصف الليل .. وأدركت وقتئذ أن الطفلة قد حانت نهايتها .

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه الطبيب لم يكن الا مجرد «سد خانة» ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره .. باحثا عنه فى الصيدليات التى وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكنى لم أجد له أثرا .

وأخيرا عدت أدراجى الى الدار وجلست وزوجتى فى صمت هنيهة وأخرى كنا نتسلل على أطراف أصابعنا لنرقب طفلتنا طفلتنا فى معركتها الخاسرة .

وعندما دقت العاشرة تسللنا الى الحجرة ، ونظرنا الى الفراش وكانت الصغيرة تبدو نائمة على جنبها الأيمن وقد ثنت ركبتيها قليلا .. وفجأة رأينا شيئا ! لم أكن وحدى الذى رأيته .. ولا كانت زوجتى وحدها التى رأته .. لقد رأيناه كلانا .. رأيناه بأعيننا كما تبصر أصابعك فى وضح النهار .. لا وهما .. ولا شبحا .. لقد رأينا بجوار الطفلة الراقدة طفلة أخرى قد أحاطتها بذراعها كأنما تحاول أن تقيها الشر ، وتدرأ عنها غائلة السوء . وكانت الطفلة هى نادية ! أجل لقد كانت نادية ترقد بجوار سامية وكلتاهما واضحة وضوح الأخرى .. وكانتا تبدوان كالنائمتين .. ووقفنا نحملق فيهما وكأننا فى حلم .. وأخيرا اختفت نادية فجأة كما ظهرت .. ونقدمنا بخطى وئيدة ونحسسنا «سامية» فاذا بها نائمة .

ونظرت الى المنضدة فوجدت عليها زجاجة لم تكن موجودة من قبل .. ورفعتها فى يدى فاذا بها الدواء الذى أشار به الطبيب .

قد تتهمنى ياسيدى بأننى لم أر فى الفراش سوى شبح صورته لى الأوهام .. ولكن ما رأيك فى زجاجة الدواء ؟

وعندما حضر الطبيب مرة أخرى قبيل منتصف الليل وانحنى عليها أبصرت فى وجهه دهشة شديدة .

وبعد أن فحصها برهة استدار وقال فى هدوء وهو يحاول أن يخفى شيئا من حيرته : «هذه معجزة من السماء .. انها الآن بخير .. أعتقد أن الخطر قد زال» .

وكان ذلك منذ زمن بعيد وقد ماتت زوجتى منذ بضع سنين ، وتزوجت سامية ، وأنجبت طفلة خضراء العينين ، ذهبية الشعر ، هى حفيدتى «نادية» لشد ما أراها تشبه نادية الأولى !

هل عندك ياسيدى تفسير لكل هذه الأمور ؟ تفسير يقبله عقلى الكهل .. لا أظن ! فأغلب ظنى أن هناك اشياء فى هذه الحياة لانستطيع تفسيرها .. وليس علينا الا أن نقبلها على علاتها .

الحاج علي

خيل الى انه لم يكن هناك من سمع الصوت سواي ، وبدأت أشعر بالخوف والحرج وتناولت «مبسم الشيشة» أشد منها نفسا استعين به على تمالك نفسى ، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لانسان أن يراه

الحاج «على أبو سريع» أو «الحاجعلى» كما تعودنا أن نسميه مدغمين الكلمتين ببعضهما كأنهما كلمة واحدة . هو حاج رسمى .. حصل على لقبه بتأدية فريضة الحج فعلا ، وما زلت أذكر كيف استقبل عند عودته من «حجه المبرور» .. استقبال الغزاة الفاتحين .. «بالطبل والمزمار والنقرزان» وقد اضطجع بجسمه الهائل الضخم فى عربة «حنطور» زينت بالورود وسعف النخل كأنه «مطاهر» .. وعلى باب داره علقت الاعلام الخضر ، وفرشت الأرض بالرمل الأصفر .

ولم أر هناك فارقا كبيرا بين «الحاج على» قبل الحج وبعده .. فمن ناحية اللقب لم يزد عليه شيئا .. فقد تعودنا أن نخلعه عليه قبل أن يحج .. فهو حاصل عليه «من منازلهم» أو هو حاج «عرفى» .. أما من ناحية المظهر ، فكل ما زاد عليه من «سبحة» يحرك حباتها بين أصابعه .. «ودبلة» فضية حشرها فى

بنصره السمين .. أما من ناحية المخبر أو الجوهر ، فلم يتغير منه شيء البتة .
فهو هو .. نصاب ، محتال ، كذاب ، خداع .

وهو لاينسى «الفرض» ! ولكن الفرض عنده لايتعدى ركوع وسجود وتحريك شفاه بكلام تعود اللسان نطقه دون أن يعيه الذهن أو يفهمه .. ولانعنى بذلك أنه يؤدى الصلاة تظاهرا ، بل عن يقين واعتقاد واقتناع بأن هذا هو واجبه نحو الله .. وماذا يطلب منه أكثر من الصلاة والصوم وحج البيت ؟

هذا هو واجبه نحو الله ، ولقد قام به خير قيام .. أما واجبه نحو عباد الله ، فهو يعتقد أنه شيء آخر لا صلة له البتة بواجبه نحو الله ، ولذلك يحرص على الا يخلط بينهما .. وفلسفته فى هذا أن «الشغل شغل» ، وأن «أكل العيش يحب الحداقة» . ! وأكل العيش يعنى لديه ابتزاز أقصى ما يمكن ابتزازه من أموال عباد الله .. أما «الحداقة» فهى عنده وسيلة واسعة مطاطة ، تستطيع أن تحوى كل ما يخطر على البال من ضروب المكر والدهاء والنصب ، والاحتيال .

كان هذا هو مذهب «الحاجعلى» قبل الحج لايخلط أبدا بين الله وعباد الله .. ! ويعتقد اعتقادا راسخا .. أن الله راض عنه كل الرضا .. أما عباد الله .. فبينه وبينهم حساب ، ليس لأمور الدين به شأن ، فهى مسألة «شطارة وحداقة» .

ولقد ظل مذهبه كما هو ، لم يغير فيه الحج شيئا .. بل لقد زاده تمسكا به خاصة وأنه يعتقد أن حجة لبيت الله قد رفع شأنه عند الله وزاد من رضى الله عليه ، وغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر ، ولذلك فهو مقبل على عباد الله ولديه من الغفران رصيد كبير ، ويستطيع اعتمادا على هذا الرصيد أن يفعل بهم ما يشاء وأن يغشهم ، ويحتال عليهم ، دون أن يخشى غضب الله .
هذا هو رأى الحاج فى واجبه نحو الله وواجبه نحو عباد الله . أما رأيه فى الواجب الثالث ، واجبه نحو نفسه .. فقد كان لايحب أن يناقشه فيه أحد .. فقد كان لابد له أن يعطى نفسه حقها .. من الحشيش .. ومن النساء .

و «الحاجعلى» رجل خفيف الدم كغيره من «السمان» الذين يعوضهم الله عن الثقل فى أجسامهم خفة فى دمهم .. فهو سريع النكتة .. حاضر البديهة .. حلو الفكاهة .. ولست أشك فى أن هذا هو السبب الذى جعل عباد الله يغفرون له ما يرتكبه معهم من غش ونصب ، وفى الوقت نفسه يقبلون عليه وعلى بضائعه ، حتى ازدحم بهم حانوته ، رغم تأكدهم أنه «مغلوانى» وأنه من الغشاشين المخادعين .. «المطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون» .

كان الرجل تاجر (ياميش) بشارع بين الصورين .. يزخر دكانه بغرارات الجوز واللوز والبندق .. ولفات قمر الدين وصناديق التين .. وزجاجات الشربات ، وعلب الحلاوة الطحينية والملبن .. وصفائح الملبس ، وكان يتخذ مركزه فى وسط الحانوت على مسطبة مكونة من أربعة صناديق متجاورة غطى سطحها بحصير وتربع فوقه بجسده السمين المنتفخ وقد تدلى «كرشه» أمامه كأنه شىء منفصل عنه .. وانبسط على جسده قفطان حريرى مخطط كشف ذيله عن جزء من ساقيه الضخمتين ، كأن بهما داء الفيل .. وقد التف حول سمانتيهما «حمالة الشراب» وبدأ طرف حذائه الأصفر ذى الرقبة الطويلة واللاستك يطل من تحت أكداس اللحم المحملة فوقه ، فاذا صعدنا البصر الى أعلى وجدنا ، الحزام الكشميرى وقد لف حول محيط الكرة الأرضية .. لا تكاد تبدو له بداية ولا نهاية . فاذا تجاوزنا الحزام صادفنا صدر الرجل «المتختخ» كأنه صدر امرأة بدينة وقد تهدل فوقه شىء يبدو كأنه كرش آخر .

فاذا أمعنا البصر فى ذلك الشىء الذى ظنناه كرشا .. اتضح لنا أنه بداية ذقن أو «لغد» تعلوه ذقن الرجل الأصلية وقد توسطها طابع الحسن ، أو قل طابع القبح ، وفوق الذقنين : الذقن السفلى والذقن العليا شفتيه الغليظتين ، وقد وضع بينهما مبسم الشيشة تندفع خلالها أنفاس الرجل كأنها أنفاس الوابور فتحدث فى الشيشة (كركبة) و (بقللة) .

فاذا تجاوزنا الفم صادفنا أنفا يبدو صغيرا نسبيا .. بجوار كتلتى اللحم اللتين يتكون منهما خدا الرجل ، أمّا العينان فلست ادرى كيف كان الرجل

يبصر بهما من فرط ضيقهما ، فهما تبدو أن فى وجهه كأنهما ثقبان .

وأخيرا تبدو رأس الرجل صلعاء جرداء .. تمتد اليها يده بين آونه وأخرى بالمنديل المحلاوى لتجفف قطرات العرق التى لاتفتأ تتصبب منها ، بصرف النظر عن حرارة الجو أو برودته !

و «الحاجعلى» فى جلسته هذه يفعل كل شىء .. يبيع ويشترى ويشرب الشيشة ، ويلقى النكات والمغازلات .. فلسانه لايكف عن الحركة بين شدقيه .. وسيل الحديث لاينقطع عن التدفق .. ولو حاولنا أن نسجل له حديثه فى لحظة من اللحظات على سبيل (العينة) لما وجدنا فيها أكثر مما يلى :

«ياميت حلاوة» .. «ياميت ندامة على اللى حب ولا طالشى» «أبوك .. قول اشمعنى .. يمسكوه بورقة» .. «يانور العيون آنست» .. «انتى يابت يا اللى زى القشطة» ..

وقد تأخذه الحماسة فيصفق بيده ، وقد يتملكه الطرب فيندفع فى الرقص وهو جالس على مصطبته يحرك كرشه ويهز كتفيه ويتمايل ذات اليمين وذات اليسار .

فاذا ما أذن المؤذن بالصلاة هبط من على مصطبته صائحا بقوله المأثور «ساعة لقلبك وساعة لربك» ، ثم يعطى لربه نصيبه من الركعات والسجدات .

هذا هو «الحاج على» ، المرح المهزار .. رجل زبائنه من غواة الضحك .. يضحكهم ويضحك عليهم ، ويغتفرون له غشه وخداعه من أجل خفة دمه .. !

وكنت للرجل صديقا حميما .. فقد كان يقطن بجوارنا فى درب الجماميز ، وكنا كثيرا ما نقضى سهرتنا سويا فى مقهى «عكاشه» على ناصية الشارع نلهو بلعب الطاولة والتدخين والسمر وحيث يتناول هو «قصاء» أو «قصين» يزن بهما رأسه ..

ومرت بى فترة من الوقت شغلت خلالها عن رؤية الرجل حتى كانت ذات ليلة ذهبت الى المقهى لأقضى السهرة معه ، فلم أجده وسألت عنه فعلمت أن به وعكة ، وأنه راقد فى داره .. ورأيت الواجب يحتم على أن أزور الحاج ، وأطمئن عليه ، ولم يكن الأمر يكلفنى كثير مشقة ، فقد كانت دار الرجل على قيد خطوات من المقهى .

وتوجهت الى الدار ، وقرعت الباب «بالسقاطه» الحديدية المدلاة عليه ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى فتح الباب ، ووجدت أمامى خادما يسألنى عما أريد ..

ولفت نظرى فى الخادم جلبابه .. فقد وجدته من قماش مخطط خطوطا حمراء وخضراء .. كأنه احدى فانلات «كرة القدم» .

ولم آبه كثيرا لجلباب الخادم .. رغم غرابة منظره ، لأنه خادم ولا حرج عليه فى أن يلبس ما يشاء ، وأجبته على سؤاله بأننى أريد الحاجعلى . فعاد يسأل :

– نقول له مين ؟

وذكرت له اسمى فاختفى ، وعاد بعد برهة ليقول :

– اتفضل ..

وتفضلت ، ودخلت الى الصالة ، فوجدت ما يقرب من السبعة أطفال ، ما بين بنين وبنات ، تتراوح أعمارهم بين الثانية والثانية عشرة وقفوا فى الصالة يتطلعون بأبصارهم الى .

وتملكتنى من رؤيتهم الدهشة ، لا لكثرة عددهم ، فقد كنت أعلم أن لدى الحاجعلى من الأولاد ما يربو على هذا العدد ولكن الذى أدهشنى هو أنى وجدتهم جميعا البنات منهم والبنين قد ارتدوا جلابيب من نفس القماش الأحمر والأخضر المخطط الذى يرتديه الخادم .

وسرت فى طريقى متجاوزا «تيم الكرة» الذى يتطلع ببصره الى .. واتجهت الى حجرة الاستقبال حيث قادنى الخادم .

لا .. هذا كثير ! .. لابد أن أهل الدار قد أصيبوا بلوثة !

من يصدق أننى وجدت بياضات الأرائك والكراسى من نفس القماش ؟

ودخلت على «الحاجعلى» ، فاذا بى أجده مستلقيا على الفراش وقد تكور كرشه وبدا كأنه قبة جامع .. لا فرق بينهما سوى أن قبة الجامع بيضاء ، أما كرش «الحاجعلى» فقد كان مخططا بخطوط حمراء وخضراء .

أجل ، فقد كان الرجل نفسه يرتدى جلبابا من القماش اياه !

وقلت للحاج :

- لابأس عليك يا حاج ، انت انكسرت من الماتش ؟ !

وفهم الرجل ما أعنيه ، وأنى أقصد «التريقه» على جلبابه فأجاب مبتسما :

- اجلس .. أنك لم تر البقية بعد ..

- هل ما زالت هناك بقية ! ؟

وهز رأسه ببساطة وأجاب بالايجاب ..

ثم رفع ذيل جلبابه قليلا وكشف عن صدره فوجدته يرتدى قميصا وسروالا من نفس القماش .. !

واندفعت أقهقه ، والرجل ينظر الى فى استكانة ، حتى تمالكت نفسى وسألته :

- ايه الحكاية .. ؟ عليكو عفريت اسمه «التيتش» ؟

وهز الرجل رأسه بالنفى فعدت أسأله فى دهش :

- أمال ايه ؟

فأجابنى :

- عسى أن يكون الآن مستريحا فى قبره ! .

- من هو ؟

- صاحب القماش ..

وازدادت حيرتي ، وعدت اتساءل عن حقيقة المسألة هل هو «نذر» من «الحاجعلي» أن يلبس هذا القماش اذا ما توفى صاحبه ؟ أم أن هناك «أسياد» يركبون الرجل وأن «الكودية» قد أشارت عليه بلبس هذه الثياب لمحاولة ارضائهم ؟

ولكن «الحاج» عاد يهز رأسه بالنفى ، ثم صمت برهة وبدا يقص على حقيقة الأمر قائلا :

– ياسيدى .. المسألة بسيطة .. ذهبت منذ بضعة أيام لأقضى سهرتى فى المقهى ، واتخذت مجلسى على «الدكة اياها» التى تعودت أن أجلس عليها ، وطلبت من «دقدق» الشيشة ، ووضعت فيها الدخان «والذى منه» ولم أكد أشد منها نفسا أو نفسين حتى حضر المعلم «بطنجها» كعادته .. ثم قال : «السلام عليكم» .. «السلام عليكم» .. «اتفضل يامعلم» .. قعد المعلم .. «تلعب عشرة .. يا حاجعلى» .. «ألعب .. ما ألعبش ليه .. هو انت صغير !» .. وصفق المعلم «بطنجها» وطلب من «دقدق» أن يحضر الطاولة .

وبدأنا اللعب .. «شيش جهار» .. «شيش ياك» .. «معلهش يا زهر» .

وحمى اللعب ، فتركت الشيشة جانبا .. وأقبلت على الزهر .

وهنا حدث أمر عجيب .. فرغم أننى كنت أجلس وحدى على «الدكة» .. ورغم انهماكى الشديد فى اللعب .. فقد بدأت أحس أن هناك شخصا يجلس بجوارى .. شخصا أستطيع أن أراه بطرف عينى ، وأنا منصرف الى الطاولة .

وحولت بصرى فجأة لأرى هذا الشخص الذى جلس بجوارى ولكنى لم أجد أحدا ، فعدت الى الانهماك فى اللعب ، ومع ذلك فقد استمر بى الاحساس بأن هناك شخصا يجلس بجوارى وأنى أستطيع أن ألمحه بطرف عينى .. واستمر هذا الاحساس متسلطا على حتى حضر المعلم «رجب» واقترب ليجلس بجانبى ، وهممت بأن أصيح به محذرا حتى لايجلس على الرجل الذى أراه بجوارى ، ولكنى خشيت أن أكون واهما .. فيتهموننى بالجنون .

وعدت الى اللعب وأنا أحس قلقا ، فقد اعتقدت اعتقادا جازما بأن المعلم «رجب» يجلس على حجر الرجل الذى جلس على «الدكة» بجوارى ، وأن الرجل لاشك فى ضيق شديد .

وقذفت بالزهر ، وقلت : «شيش ياك» .. وتمهلت برهة افكر فى كيفية تحريك الحجارة . ثم هممت بأن أرفع حجرا من احدى الخانات عندما سمعت صوتا يقول لى : «سيب ده واحبس فى الياك يا غبى» .

وتملكنى الدهش فقد كان الصوت غريبا عنى ، لم يكن صوت «بطنجها» ولا «رجب» ، بل صوتا آخر ، وأحسست بالغضب وهم دمى بأن يفور ، لولا أننى وجدت أن اللعبة التى أشار بها على الصوت هى اللعبة «الصح» فلم أجد بدا من احتمال الاهانة وتنفيذ اللعبة .

وخيل الى أنه لم يكن هناك من سمع الصوت سواى ، وبدأت أشعر بالخوف ، والحرج ، وتناولت «مبسم الشيشة» أشد منها نفسا استعين به على تمالك نفسى ، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لانسان أن يراه .

لقد نفثت الدخان من فمى فلم يتصاعد فى الهواء ، بل أخذ يتكتل ويتجسد حتى ظهر من خلاله صاحب الصوت .

أجل لقد رأيت أخيرا ذلك الرجل الذى كان يجلس بجوارى وقد وقف ينظر الى الطاولة مرتديا جلبابا طويلا وطربوشا .. والتفت حولى خلسة أرقب وجوه الموجودين وأرى أثر ظهور الرجل عليهم ، فاتضح لى أنهم لم يميزوه ، وأنى أنا وحدى الذى رأيته .

وبدأ الرجل ، أو قل الشبح ، يرشدنى فى كل لعبة ، «فك الجوهار باحمار» .. «أحبس فى الدو ياتيس» «سيب الحجر ده يا طور» . لقد كان الشبح قليل الأدب بعض الشىء ولكنى احتملته فى سبيل نصائحه .

وكيف لا أحتمله ! وقد انتهى بى الأمر الى أن أغلب المعلم «بطنجها» أربع عشرات ، وأنا الذى لم أغلبه فى حياتى مرة واحدة .. حتى كاد الرجل أن يصاب «بنقطة» .

وأخذ الناس ينصرفون من المقهى الواحد تلو الآخر حتى «صفصفت» على وعلى صاحبى الشبح .

وجلس الشبح بجوارى وهممت بأن اطلب له شايا أو قهوة ولكنه أفهمنى أن الأرواح لاتستطيع الأكل أو الشرب .. وبدأنا فى «الدردشة» والحديث عن هزيمة «بطنجها» التى لم يسمح التاريخ بمثلها .

ولاحظت على الشبح دلائل هم وعلامات ضيق وقلق ، فسألته عما به فهز رأسه قائلا : «لاشىء» ، ولكنى الححت عليه فراح الشبح يسرد حكايته قائلا :

-- ان مصيبتى كبرى لأن روحى معلقة بين السماء والأرض فلا أنا حى أسعى وأعيش مع الأحياء ، ولا أنا ميت فتصعد روحى الى السماء مع بقية الأرواح !

ونظرت اليه فى دهش وسألته كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ فأجاب :

-- ان قصتى تبدأ منذ عشرين عاما عندما كنت أعمل مع أبى فى تجارته فى الغورية ، وكنا نتجر فى الأقمشة ، وفى يوم نحس اصابنا سوء الحظ فضاعت علينا صفقة كبيرة ، واتهمنى أبى بأنى أنا الذى أضعتها ، وانى خائب لا أصلح للتجارة ، وأنى سأعيش طول عمرى عالة عليه .

وأثارنى قوله ، واشتد بيننا النقاش وقلت له أنه هو الخائب وانه يفسد بتدخله معظم الصفقات ، وأنى لو كنت وحدى لأريته كيف تكون التجارة .

واندفعت فى ثورتى الى بعض أثواب من القماش فحملتها على كتفى وقلت له انى سأسرح بالأثواب وسأريه كيف يكون البيع ، وأقسمت ايمانا مغلظة انى لن أعود حتى أبيعها .. وأن تحل لعنة الله على فلا يهدأ جسدى فى أرض أو تستقر روحى فى سماء حتى أبيع آخر قطعة منها .

ولكنى لم أكد أغادر الحانوت وأسير فى الطريق بضع خطوات وأنا أحمل الأثواب حتى دهمتنى عربة فقتلت لساعتى .

وحملني رفاقي الى القبر وسط النحيب والبكاء وانتظرت أن تصعد روحي الى السماء ، ولكنها لم تصعد ! فلقد حلت لي اللعنة ووجدت نفسي أتجول في الطرقات وأنا أحمل الأثواب أحاول بيعها فلا يراني أحد ولا يحس بي انسان .. عشرون عاما وأنا أهيم على وجهي في الطرقات محاولا بيع الأقمشة دون جدوى . وأخيرا عثرت على أول شخص استطاع سماعي ورؤيتي وهو انت .. ان في يدك خلاصي ، وكل ما أريده منك هو أن تبتاع مني الأقمشة ان سعرها رخيص جدا بالنسبة لاسعار هذه الأيام .. فهي «بالتراب» .. ان الثوب لايزيد ثمنه عن ثلاثة جنيهات .

وأخذت أفكر في قول الشبح فرأيت أني استطيع أن أصيب عصفورين بحجر . اذ أستطيع بشراء الأثواب أن أنقذ روح الرجل .. ثم ان الصفقة نفسها صفقة هائلة فمن ذا الذي يستطيع أن يشترى الآن قماشا بأسعار ما قبل الحرب .

ولم أتردد كثيرا ودسست النقود في يد الشبح وسرعان ما سلمني «الأثواب» الثلاثة .

لاتقل أنني كنت واهما ، وأن ما رأيته لم يكن سوى أضغاث أحلام .. فلا أظن هناك دليلا على أن الأمر كان حقيقة واضحة اكثر من هاته الجلاليب التي يرتديها كل من في الدار .

وانتهى «الحاجعلي» من قصته ، وأخذت أفكر جيدا .. وتذكرت رجلا عرض على ذات ليلة عينة من قماش لديه منه بضعة أثواب بسعر رخيص وتذكرت أن عينة القماش لم تكن تختلف كثيرا عن هذا القماش .. ولم أشك وقتذاك ان القماش الذى لدى الرجل مسروق ، وأنه يبيعه خفية ولذلك أعرضت عنه .

ترى هل كان الرجل شبحا .، أم أن «الحاجعلي» الذى خدع الناس جميعا قد استطاع الرجل أن يخدعه أخيرا فجعله «يطب» ويبتاع الثلاثة أثواب المسروقة ! .

علم ذلك عند ربي ، وعند «التعميرة» التي كان «الحاج» يشد منها نفسا بعد نفس .

حياة مزدوجة

... فنظرت أمامي فتملكني دهش شديد لقد وجدت تغييرا كاملا في كل ما يحيط بي ، وتبدل ما كنت أبصره أمامي تبديلا تاما .. انى لم أجد نفسي في مكان آخر فحسب .. بل في زمان اخر .

ما الروح وما الحياة .. وما الموت .. وما الدنيا .. وما الآخرة .. وما الزمن ؟ أهو ذلك الشيء الذي يبدو لنا كسيل دائم التدفق ينبع من المستقبل المجهول ، ويجري في وهاد الحاضر الذي نعيش فيه .. ثم يصب في الماضي الخفي ليذهب الى غير عودة أو أن أقسام الزمن الثلاثة : المستقبل والحاضر والماضي يمكن تشبيهها بأشياء مجسدة ، ويمكنها التحرك في أي اتجاه كما يتحرك أي كائن ملموس .. فأي حدث من أحداث الحياة بأوضاعه الثلاث : مستقبله ، وماضيه ، وحاضره .. يمكن أن يتحرك في أي اتجاه في محيط الزمن .

أواضح قولي .. أم تراني لا أحسن التعبير ؟

لكي أوضح أكثر .. هل يمكن للماضي أن يصبح حاضر وللحاضر أن يصبح مستقبلا ؟ .. لاتتعجلوا الرد فتقولون : لا .. لانى أستطيع أن أؤكد أن ذلك شيء دائم الحدوث .

وفيما لا تعللون الاحلام .. بم تعللون الفترة التى يحياها النائم فى ماضيه ؟ وبم تعللون تلك الاحلام التي تنبئنا عن المستقبل والتى تعرض علينا فى نومنا .. وهو حاضر .. أحداث لن تتخذ مكانها فى ميدان الزمن الا بعد أيام أو أشهر .

اليس هذا هو تحرك عكسى للأحداث فى محيط الزمن من المستقبل الى الحاضر ، ومن الحاضر الى الماضى .

هذا شيء دائم الحدوث فى الأحلام .. ليس فيه ما يثير الدهشة ، ولكن مارأيكم اذا ما حدث هذا فى اليقظة ، فعاش الانسان فترة من الماضى وهو يقظان .

أمر عجيب .. أعيانى تفسيره ! .. فقد حدث لصاحب لى كان يحيا حياتين : حياة حاضرة ، وحياة ماضية .

اليكم قصته ، سأسردها كما هى .. ان ذهنى البشرى اعجز من أن يكشف غوامضها أو يجد لها تعليلا .

وقع النبأ على وقع الصاعقة .. فما خطر لى على بال قط أن صاحبى «توفيق المهندس» يمكن أن يقدم على جريمة قتل ! . ولست أشك - اذا ما وصفته لكم كما عرفته منذ عشرات السنين - أن الدهشة ستتملككم ، كما تملكتنى ، وأنكم ستتساءلون معى .. كيف أقدم على ارتكابها ؟ وتحت أية ظروف ؟

هو انسان عاقل متزن ، أميل إلى الصمت ، مسالم بطبيعته يصعب عليك أن تثيره ، أو قل يستحيل اثارته أو اغضابه .. فما رأيته قط غاضبا أو ثائرا .. بل يوافقك على كل ما تقول نجنبا منه للنقاش والحديث .. اذا سألته أجابك بقدر ما يمكن من الاختصار .. ان لم يكن بهزة من رأسه .

عرفته خلال الطفولة والصبا والشباب .. فلم أجده مرة واحدة يخرج من حلمه وهدوئه وصمته .. فقد كانت تلك هى طريقة خلقه وتكوينه .. ولم تكن شيئا مكتسبا من السن أو التجربة .. أو نتيجة لصدمة من صدمات الحياة .

عشرون سنة .. لم أفارقه خلالها ، وهو هو ، ما أغضبته غباوة خادم .. أو اهانة رئيس ، ولا ضاق بمزحة ثقيل أو ثرثرة ماجن .. بل تعينه سعة صدره على أن يلقى الحياة وسخافاتها بابتسامة هادئة ونفس قريرة .

تصوروا بعد كل ما أعرفه عنه .. أسمع فجأة أنه قد ارتكب جريمة قتل ! وقتل من ؟ خادمه العجوز «عم محمد» الرجل الطيب الهادىء .. المخلص الأمين .. الذى اصطحبه منذ أن حضر من بلدته الى القاهرة للدراسة ، والذى أمضى السنين الطويلة فى خدمته دون أن أسمعه يشكو منه قط .. بل كان أشبه بالأب ، والأم ، والزوجة ، وكان يقوم له بكل ما يلزمه ويقضى كل حوائجه .

لقد كان القتل آخر ما يمكن أن ينتظر من صاحبى .. ومع ذلك فقد تجبر الظروف أى انسان مهما بلغ من الهدوء والاتزان على أن يقدم على القتل .. قتل لص هاجمه فى الليل وارغمه على أن يرد العدوان عن نفسه بقتله .. أو قتل فى ثورة غضب لشرف مثلوم .. أو أى ظرف من الظروف الطارئة التى قد تؤدى بنا جميعا الى ارتكاب القتل .

أقول ان العذر قد يلتمس لصاحبى المتزن العاقل لو انه أقدم على جريمة قتل من هذا النوع .. الذى لاتجدى فى دفعه حكمة ولا عقل .. ولكن أى عذر هناك .. فى أن يقدم على قتل الخادم العجوز المسكين .

ولقد بدا لى فى أول الأمر .. أن الحادث قد يكون فيه سوء لهم أو التباس . وأن صاحبى قد يكون بريئا من كل ما اتهم به . ولكنى عندما عرفت تفاصيل الحادث أدركت أن الأدلة كلها تكاد تجزم بأنه القاتل .

كانت الواقعة تتلخص فى أن بواب البيت الذى يقطن فيه صاحبى أقلقه قبيل الظهر الا يجد أثرا للخادم العجوز وهو الذى تعود أن يهبط اليه كل صباح ليبتاع الفول والفطار لسيده ، ثم يخرج بعد ذلك للسوق لشراء الخضروات واللحم لتجهيز الغذاء .. وقد يجد من وقته فسحة للدردشة معه وشرب فنجان من القهوة ما بين الفطار والغذاء .

وتذكر البواب أنه قد شاهد «توفيق افندى» يهبط الدرج مسرعا فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء عندما كان يوشك أن يستلقى فى فراشه فى غرفته الخشبية الكائنة أسفل السلم . ولم يذكر بعد ذلك أنه أحس بعودته .

واستنتج أن «توفيق افندى» ربما قد قضى الليل خارج الدار ، وأن «عم محمد» قد طال نومه فلم يجد بدا من أن يطرق الباب ليوقظه .

وطرق الرجل الباب فلم يسمع الا صدى طرقاته . واشتد الطرق بلا جدوى . فتملكه القلق .. وأحس بأن شيئا غير عادى لابد أن يكون قد حدث وأوجس فى نفسه خيفة .

ونظر من ثقب الباب فسرت فى جسده رجفة . اذ بدا له كأن هناك جسدا مسجى بجوار الحائط فى أقصى الغرفة .. وتراجع فى ذعر ثم انطلق من الدار صائحا وأبلغ أول من صادفه من سكان الدور المجاورة وأصحاب الحوانيت . وبعد برهة كانت الشرطة والناس قد تكأكأوا حول البيت .

وفتح باب الدار ، فاذا بالخادم ملقى على الأرض جثة هامدة ، وقد هشمت رأسه بضربة من عصا غليظة ملقاة بجواره بدت عليها آثار دماء .

وكانت ملامح القتيل بدا عليها دهش شديد .

واستطاع البواب أن يجزم أن العصا هى عصا «توفيق افندى» وأدلى بشهادته التى تتلخص فى أنه لم يشاهد من السيد والخادم الا كل ما تعود أن يشاهد يوميا ، وأن كليهما آوى الى الدار قبيل العشاء ، وأنه شاهد السيد بعد ساعتين ، أو ثلاثة يهبط الدرج وقد اندفع من الباب فى عجلة شديدة ، ولكنه لم يخطر بباله قط أن هناك جريمة قتل قد ارتكبت .. فما حدث ما يثير ريبته أو يوقظ شكوكه وهو لايعرف هناك سببا يستدعى أن يقتل السيد خادمه ، فقد كان الرجل طيبا وكانت العلاقات بين الاثنين على خير ما يرام .

وقرر الطبيب الشرعى أن القتل حدث قبيل الحادية عشر اى فى الساعة التى شوهد فيها «توفيق» يندفع من الدار ، ولم يستطع المحقق أن يستدل على أن أحدا دخل البيت غير الرجل والخادم .. وهكذا ثبتت التهمة على «توفيق»

ولم يبق هناك مجال للشك فى أحد غيره ، خاصة وأنه قد ولى فرارا ولم يظهر له أثر بعد ارتكاب الجريمة ! ..

أمر عجيب !!

ان التحقيق قد أثبت أن «توفيق» هو القاتل . وأنه ضرب الخادم بعصاه ضربة أفضت الى موته ثم فر هاربا .

ولكن لم يقتله ؟ .. أين هو الآن ؟ ..

أن المسألة رغم أن التحقيق استطاع اثباتها بسهولة .. تبدو عويصة محيرة . فأنا أدرى الناس بصاحبى . انه لايستطيع أن يقدم على قتل حشرة ، وهو ليس بالانسان الأحمق الذى يثيره خطأ خادم الى حد أن يتهور فى ضربه ضربة ترديه صريعا .

لا .. لا .. انى اقسم ان «توفيق» لايمكن أن يكون القاتل .. فلابد أن تكون هناك ظروفا خفية احاطت بالجريمة .. ظروفا يعرفها هو ، ويستطيع لو أظهرها أن يبرىء نفسه مما اتهموه به .

ولكن أين هو ؟ ولم اختفى ؟ . وماذا يخشى اذا كان لم يرتكب الجريمة ؟ انى موقن لو التقيت به لاعترف لى بكل ما حدث . فهو يثق بى ثقة عمياء ، ولا يركن الى أحد سواى ، ولايستطيع أن يخفى عنى شيئا .

ونشر الحادث فى الصحف تحت عنوان «مهندس يقتل خادمه ويفر هاربا» وأعلن أن البوليس جاد فى البحث عن القاتل الهارب .

وعدت الى البيت ورأسى يصطخب بتلك المسألة المحيرة . ومضى اليوم وأنا أحاول عبثا أن أجد تعليلا منطقيا معقولا لشىء مما حدث .

انى أجزم أن «توفيق» ليس القاتل ؟ من هو القاتل اذا ؟ .. ولم لاذ «توفيق» بالهرب ؟ واى انسان على وجه الأرض يمكن أن يكون له مصلحة فى قتل العجوز المسكين ؟

وبتلك الأفكار الحائرة والأسئلة التى لاتجد جوابا شافيا . آويت الى مضجعى .. ولم أك أتوقع بالطبع أن يتسلل النوم الى عينى بسهولة ولكنى فقط كنت اريد أن أريح جسدى .. وهكذا رقدت على الفراش وقد انتابنى أرق شديد وتنبهت كل حواسى . عندما سمعت فجأة طرقا على الباب .

وكان الطرق من الخفة بحيث تخيلت اننى واهم فيما سمعت .

ومضت برهة ليست بالقصيرة دون أن أسمع شيئا حتى كدت أجزم أن الطرقات لم تكن سوى خداع سمع .

ولكن .. مرة ثانية ، عادت الطرقات . خفيفة مترددة .. كأن صاحبها يسترق الطرق .. أو كأنه يخشى أن يسمعه احد سواى .

ونهضت فى حذر ، واقتربت من الباب ببطء ووقفت وراءه لحظة وحاولت جهدى أن أتغلب على تلك الرجفة التى أصابتنى . فقد كانت أعصابى متعبة مكدودة . وتساءلت فى صوت لايخلو من الفزع :

- من ؟

وأجابنى صوت خفيض :

- أنا .. افتح ..

انه هو ! هو بعينه ! . صوت توفيق . الهادى الأجش العميق وأنصت برهة .. وتلفت حولى .. فلم أجد احدا فى الدار قد استيقظ على صوت الطرقات سواى .. وتقدمت خطوة الى الباب ومددت يدى الى المزلاج فرفعته وفتحت الباب وهمست :

- ادخل .

ودخل صاحبى . واستطعت أن أميز وجهه على ضوء المصباح «السهارى» الباهت . فهالنى ما وجدت به من شحوب وانهاك ووجدته يترنح فى مشيته كأن ساقيه لاتستطيعان حمله ، فأمسكت بذراعه وقدته الى حجرتى .. فارتمى فى اعياء على احدى الأرائك .

وأغلقت باب الحجرة بهدوء . ووقفت أتأمله وقد أغمض عينيه وتلاحقت أنفاسه وأخذ صدره يعلو ويهبط ، وأمسكت بيده وسألته :

- ما بك .. بماذا تشعر ؟

- لاشيء .. فقط متعب وجائع .. ومحطم الأعصاب .

وتركته وذهبت الى المطبخ لآتى له بشيء يسد رمقه .. وتواترت الأفكار على رأسي في سرعة البرق .

انى واثق انه بريء مما اتهم به . ولقد أتى الى لأنى ملجأه الوحيد .. ولأنه ليس له صديق يعتمد عليه سواى .. ولاشك أنى يجب أن أعاونه على اثبات براءته .. ولكن هب أنه ليس بريئا ؟ .. وأنه القاتل فعلا ، وأنه أتى الى فارا من وجه العدالة .. وأنه يطلب منى أن أخفيه عن أعين البوليس .. ماذا يكون موقفى حياله ؟

هل من العقل أن نعاون قاتلا على الهرب من وجه العدالة ؟ ثم الى متى أستطيع اخفائه ؟ . وماذا يكون موقفى اذا ما ضبط وثبت أنى عاونته على الأختباء ؟

ولكنى كيف تطاوعنى نفسى على أن أبلغ عنه ؟ .. وكيف أستطيع أن أتخلى عنه وقد ركن الى وطلب معاونتى ؟

ولكن لم كل هذه الفروض ، وأنا أكاد أجزم أنه بريء .

وعدت اليه ببعض الطعام وكوب من الماء .. فتناول الماء منى بلهفة وجرع الكوب مرة واحدة ، وكان قد هدأ بعض الشيء .. وجلست أرقبه فى صمت وهو يزدرد الطعام حتى انتهى منه ، وسألته فى قلق :

- قص على ما حدث .. انك بالطبع لم تقتل الرجل .

وأطرق برأسه .. ومضت برهة طويلة وقد بدت عليه الحيرة والتردد ، ووجدته يجيبنى ، وهو يهز رأسه فى يأس شديد :

– لاأستطيع أن أجيبك بمثل هذه السهولة .. ان المسألة ليست من البساطة كما يمكن أن تتصور .. أنا لا أستطيع أن أجيب بأنى قتلت أو لم أقتل . ولا أكاد أعرف أنا نفسى اذا كنت بريئا أم مذنبا .. انها مسألة معقدة ملتوية ، وقبل أن أجيب عن سؤالك عما اذا كنت قتلت الرجل أم لا ، يلزم أن أوضح لك جلية الأمر .. وأروى لك الظروف الملابسة له ، ثم أسألك عما اذا كنت قاتلا أم لا . أنت تعرف مبلغ ثقتى بك ، وأنى أعتبرك كنفسى .. سأروى لك كل شىء بالتفصيل . وكل ما أرجوه منك أن تصدقنى .. ولاتتهمنى أننى واهم أو مجنون .. لقد كنت أود أن أقص عليك الأمر عند بدء حدوثه ، ولكنى خشيت الا تصدقنى .. وفضلت أن أطويه فى صدرى ما دام ليس هناك ضرر فى ذلك . فقد كنت أجد فيه شيئا خاصا لن يتعدى دائرة نفسى .. ولا مبرر لأن أفصح عنه لأحد ، خاصة وأنه شىء لايقره العقل .

ولو أنى سمعت هذا القول من انسان آخر غيره فى مثل ظروفه .. لشككت كثيرا فى سلامة عقله .. ولظننت به اضطرابا فى الذهن والأعصاب .. ولوجدت فى قوله تخبطا منشأه ذلك الاجهاد الذى حطم قواه .

أجل لقد كنت أتوقع أن تكون اجابته لى قاطعة جازمة بأنه لم يقتل الرجل .. ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد الظروف المحيطة .. لا أن يقول لى أنه لايدرى هو نفسه أن كان قتل الرجل أم لم يقتله ولايعلم اذا كان بريئا أم مذنبا ، وأنه يسألنى أنا لكى أجيب عنه .

أقول انى لو كنت سمعت هذا القول من اى انسان لاتهمته بالجنون .. ولكن «توفيق» لم يكن الشخص الذى يسهل على اتهامه بالجنون .. فقد ألقى الى قوله بطريقته الهادئة المتزنة التى توحى الى السامع بالثقة فى كل ما يقال له بحيث لايدع له مجالا لريبة أو موضعا لشك .

وقلت له متسائلا :

– عجيب ! انك لاتعرف اذا كنت قتلته أم لا !

– انى فى الواقع قد قتلت .. ولكنى لم أقتله هو .. بل قتلت انسانا لا أعاقب على قتله .. أو على الأقل ، لايمكن أن أعاقب على قتله فى زمننا هذا .. اللهم الا اذا كان الانسان يمكن أن يعاقب على قتل الأموات .. وأى أموات ؟ .. أموات توارروا فى باطن الأرض منذ مئات الأعوام .. ولم يبق منهم الا رماد عظام لا تكاد تميزه من أديم الأرض ؟ ..

وصمت برهة يفكر .. ثم رفع رأسه وسألنى فجأة :

– اسمع .. هل يمكن أن يعاقبك أحد فى أيامنا هذه على أن قتلت كليبر ، أو نابليون بونابرت !

– نابليون بونابرت ؟ .. أنا أعاقب على قتل نابليون بونابرت ؟

– أنت ، أو أنا .. أو أى انسان !

– طبعا لا .. لسبب بسيط ، هو أنه ليس هناك من يستطيع قتل نابليون بونابرت .. ولا أحقر جندى من جنود بونابرت .. لأنهم قد أضحوا شيئا غير كائن .

– انتهينا .. اذا فليس هناك من يستطيع معاقبتى على الجريمة التى ارتكبت .

– ولكن القتيل ليس بونابرت .. وليس كليبر .. بل هو «عم محمد» الخادم الذى كان بالأمس انسانا يتحرك من دم ولحم .. لا عظام فى باطن الأرض ، ولا أديم ولا رماد .

– ولكنى لم أقتل «عم محمد» فليس هناك قط ما يدعونى الى قتله .. انه أكثر الناس نفعا لى .. ولست أتصور كيف يمكن أن تجرى حياتى بدونه .. كيف آكل .. كيف ألبس .. أنا أقتل «عم محمد» .. لما ..

– أنا لم أقل إنك قتلت «عم محمد» .. ولكنى قلت أن القتيل .. الذى أريق دمه .. والذى طرحت جثته مسجاة على الأرض بلا حراك .. هو «عم محمد» .

– القتيل هو «عم محمد» .. هذا هو المصاب .. وتلك هى العقدة .. ان الذى قتلته لم يكن «عم محمد» .. ولكن الذى قتل فعلاً هو «عم محمد» .

وأطرق صاحبى برأسه ، واستغرق فى تفكير عميق .. ثم قال بعد لحظة :

– حسنا .. دعنى أروى لك المسألة من أولها .. خبرنى عن رأيك فى النهاية ، وقل اذا ما كنت بريئا أم مذنبا .

بدأ الأمر ذات يوم قبيل الغروب ، وقد جلست فى شرفة الدار مستلقيا فى أحد المقاعد الطويلة المريحة أرقب قرص الشمس الملتهب يهبط فى الأفق البعيد رويدا رويدا ، وقد خلف وراءه نيول الشفق الأحمر تبعث بأشعتها الأرجوانية متخللة أوراق الأشجار المترامية فى حديقة الدار وفى حدائق الدور المجاورة .

وأخذت أحملق فى رؤوس الأشجار الملتهبة كأنها فوهات براكين .. وبدا لى كأن بصرى قد ثبت فيها لايستطيع عنها حولا .. وأحسست بتبلد فى الذهن ، واسترخاء فى الأعضاء .. وانتابنى شعور الذى يقع تحت تأثير مخدر .. وبدت لى المناظر التى أمامى تتلاشى رويدا رويدا .. وفجأة أحسست بيقظة تماما .. ووضح كل شىء أمامى تماما ، كما يحدث عندما نكون فى ظلمة دامسة ، ثم نضغط زر كهربائى فيغمرنا النور مرة واحدة ، ونظرت أمامى فتملكنى دهش شديد .. لقد وجدت تغيرا كاملا فى كل ما يحيط بى .. وتبدل كل ما كنت أبصره أمامى تبدلا تاما .. انى لم أجد نفسى فى مكان آخر فحسب .. بل فى زمان آخر .

أجل ان ما أبصرته لايمكن أن يكون فى زمننا هذا .

لقد وجدت نفسى أجلس فى «مشربية» ملونة بالزجاج بديعة الزخارف تدلى من سقفها – لامصباح كهربائى – بل قنديل زيتى دقيق الصنع .

وبدت لى الدور المقابلة لايكاد يفصل بينى وبينها الا بضع خطوات وقد ضاق الطريق بيننا ، وأطللت من نافذة «المشربية» فاذا بالطريق يغص بالمارة ، وقد قامت على جانبيه الحوانيت المزدحمة .

هل تعرف تلك الطرقات الضيقة التى تحيط بمدرسة «السنية» فى حى «السيدة» ، أو تلك التى تتفرع من «باب الفتوح» ؟ .. أو «بوابة المتولى» ؟ .

كان المكان يشبه الى حد كبير تلك الطرقات .. مع فارق فى أزياء الناس الذين يعيشون فيه . وأبصرت المارة وأصحاب الحوانيت يرتدون العمائم الضخمة ، «والقفاطين» ذات السراويل والمراكيب الحمراء المدببة .

وأوحى الى ذلك المنظر الذى رأيته - منظر الدور ، والطريق والناس .. ثم منظرى أنا نفسى .. وقد لمحت ساقى تنتعلان «المركوب اياه» و «السروال الفضفاض» بأنى أعيش فى زمن غابر ، غير ذلك الزمن الذى تعودت أن أحيا فيه .

هبطت الدرج الحجرى بعد أن وضعت «العمامة» على رأسى ، وسرت بين الناس فى الطرقات .. فلم أجد أثرا لترام ، أو سيارة .. بل خيل مطهمة . وعربات ، وحمير .

ورأيت الناس يتحدثون : بأن الوالى قد أمر بأن يعلق على كل باب ، مصباح ، ووجدت بينهم حالة من التذمر ، ولا أطيل عليك الحديث . فقد أدركت بسهولة مما أبصرت من مناظر وسمعت من أحاديث أننى أعيش فى عهد «محمد على» الكبير .

وأنى أذكر أن ما كان يشغل الناس يومذاك هو أنباء الحملة التى ينوى الوالى توجيهها الى «الوهابيين» تحت امرة ابنه «طوسون» .. وكان يتحدثون عن السفن التى تم بناؤها والجيوش التى تم حشدها ، وتموينها بالمهمات والأسلحة والذخائر .

وعدت الى الدار عقب جولة فى الطرق المجاورة ، وجلست مرة أخرى فى مقعدى حيث كنت أجلس ، وبعد لحظة أحسست بنفس التبلد ، والاسترخاء ، وأخذت المناظر تتلاشى بالتدريج . ومرة واحدة أضيئت الأنوار ، فاذا بى حيث كنت .



وصمت صاحبى برهة .. ووجدته يجيب على نظراتى المتشككة قائلا :

– حسنا .. قد يبدو لك هذا مجرد حلم .. وانني أغفيت اغفاءة طويلة وأنا جالس فى مقعدى .. ولقد كان هذا فعلا هو ما تصورته .. حتى حدث بعد بضعة أيام أن تكرر الأمر مرة ثانية بنفس الطريقة ، واذا بى أجد نفسى مرة أخرى : أعيش فى قرن مضى .

لا أظننى استطيع اقناعك بمجرد أن أطلب منك أن تثق فى صحة قولى .. وأن تصدق ان ما كان يحدث لى هو شىء اكثر من الأحلام .. هو انتقال فعلى من حياة الى حياة .. وأن الحوادث كانت تمر بى فى الحياة الأخرى بنفس الترتيب المنتظم الذى يتبع مرور الأيام .. بمعنى أننى اذا انتقلت اليها اليوم مثلا .. ثم انتقلت اليها بعد ذلك بيومين ، فانى أجد أنه قد حدث بها من الحوادث ما يقع فى يومين ، وذلك يؤكد ان ما كنت أبصره فيها هو حياة مستمرة ، وليست مجرد مناظر متقطعة . قد يداخلك الشك فى صحة قولى ، ولكنى أستطيع أن أذكر لك من التفاصيل ما يثبت لك بوجه قاطع اننى عشت فعلا فى ذلك العصر .. أنت تعلم أننى مهندس ، وأننى لم أدرس من التاريخ الا ما درسناه سويا فى «مدرسة الخديوية» والذى لا يعدو أن يكون سردا سطحيا لتولية «محمد على» الحكم وفتوحاته واصلاحاته ، أما التفاصيل الدقيقة عن الحياة فى ذلك العصر .. والتى قد تعرف انت عنها الشىء الكثير بحكم مهنتك كمدرس للتاريخ ، فانى أجهل الناس بها .

وهززت رأسى بالموافقة ، ووجدت نفسى أنصت اليه فى لهفة .. وأطلب منه أن يذكر لى تلك التفاصيل ، وبدا يصف لى الطرقات والناس ، وذكر لى كيف أبصر شاطىء النيل فى المكان الذى تقوم فيه بولاق ، والمطبعة الأميرية ، وقد تحول الى ترسانة لصنع السفن .. وذكر لى أن أطراف المدينة كانت تقوم عند العباسية وأن المكان المفروض فيه أنه القبة الآن .. كان ميدانا للتعبئة ، وحشد الجنود ، وأخذ يصف لى تفاصيل دقيقة عن الحياة فى ذلك الوقت ، ويصف لى الطرقات ، والميادين ، والدور ، والحوانيت .. وكيف أبصر ميدان السيدة ، والحسين .

ونظرت اليه مشدوها مأخوذا .. فأنا أدرى الناس بصحة كل ما قال .. فلقد درست ذلك العهد جيدا وقرأت الكثير عنه ، وكان كل ما قال صحيحا مائة في المائة .. كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ وفجأة خطر لى خاطر خلت أنه كشف لى عن جلية الأمر .

وهززت رأسى وقلت لصاحبى كأننى قد حللت اللغز !

- هل قرأت تاريخ الجبرتى ؟

فنظر الى فى غبطة وأجاب متعجبا :

- جبرتى ؟ .. أنا أقرأ تاريخ الجبرتى ؟ .. ألدى وقت لكى أقرأ الجبرتى .

- ولا تاريخ الحركة القومية للرافعى ؟

- لا داعى لهذه الأسئلة .. يجب عليك أن تثق بى ، وتصدق كل ما أقول .

- أنى أثق بك وأصدق ما تقول .. ولكنى أريد أن أجد تعليلا لما حدث لك .. ومبررا لأن تعرف فى غيبوبة كل هذه المعلومات الدقيقة . اذا كنت لم تقرأ شيئا من هذا .. فان المسألة لاشك خارقة للعادة .

وساد الصمت بيننا برهة .. ووجدتنى استغرق فى التفكير .

هذا الرجل الجالس أمامى .. قد أمكنه أن يعيش فى قرن مضى .. ان معلوماته لاشك أدق من الجبرتى ، ومن أى مؤرخ كتب عن عصر «محمد على» .. أنه أبصر «محمد على» ، أو يستطيع ابصاره .

وسألته فى لهفة :

- هل رأيت «محمد على» ؟

- رأيته مرة يمر بعربته من أحد الطرق ولمحت جانب وجهه .

- والنقيب عمر مكرم ؟

- رأيته خارجا من سيدنا الحسين فى جمهرة من الناس .

- ومن رأيت من رجال التاريخ غير هؤلاء .. حدثني بالتفصيل كيف وجدتهم .

ولكنه هز رأسه .. ولم يبد عليه أنه يهتم كثيرا برجال التاريخ وأجاب بعد برهة صمت :

- يجب أن تتذكر أنى لم أعش فى حياتى تلك كمؤرخ .. ولم أكن أهتم كثيرا بأن أعدو وراء هؤلاء المشاهير لأبصرهم كيف يبدون ، ولا ماذا يرتدون .. لقد كنت فردا عاديا وكانت لى حياتى الخاصة التى أهتم بها .

- ولكن هل كان من حولك يحسون بك ؟

- طبعا .. هل تظنني كنت بينهم شبحا ؟

- وكيف كانت علاقتك بهم ؟ ..

- هذا ما أنوى قصه عليك .. ان تلك العلاقات هى التى أدت الى المشكلة التى أغرقت نفسى فيها .. سأقص عليك كيف بدأت .. لقد تعودت أن اجلس عندما أندفع فى حياتى الأخرى على مقهى بجوار «باب الفتوح» وصاحبت من رواد المقهى رجلين من كبار التجار «محسن الخيمى» و «عبد الرؤوف الدخاخنى» ، وفى ذات يوم ، وقد اندمجت فى حياتى الغابرة ، وجلست على المقهى بينهم دعانى «الخيمى» الى تناول الغذاء معه .. وترددت برهة ولكنه ألح على فقبلت . وذهبت الى داره .. دار فخمة البناء ، فاخرة الرياش ، ومد السماط . فتناولنا من الطعام ما لذ وطاب ثم تمددنا على المراتب نحتسى القهوة .

وانتهينا من القهوة .. وسألنى مضيفى ان كنت أود أن أرى مستقبلى فى الفنجان .. فأجبته بالموافقة .. فنادى على الساقى وطلب منه أن يرسل عائشة ثم التفت الى قائلا :

ان ابنتى «عائشة» خير من أن يقرأ الفنجان .. لقد علمتها القراءة جارية عجوز تولت تربيتها بعد أن ماتت أمها .

وبعد برهة أقبلت عائشة !

أجل ..أقبلت «عائشة» فأحسست أن قلبى يكاد يقفز من بين أضلعى .

لقد أحببت بضع مرات فى حياتى هذه .. ورأيت كثيرات من أنواع النساء .. ولكنى لا أذكر قط أن مخلوقا استطاع أن يفعل بى كما فعلت عائشة .

لا أريد أن أضيع الوقت فى وصفها لك . فليس هذا مجال غزل وتشبيب ، ولتكن ما تكون .. المهم .. هو ما تركته من أثر فى نفسى .. لقد أحسست أنها سرت فى دمى وأنى قد أصابنى من سحرها نشوة عجيبة .

وقرأت لى الفنجان .. ولم أسمع بالطبع مما قالت شيئا .. وعدت الى الدار وأنا شبه ثمل .

وعندما عدت الى حياتى هذه .. وجدت أن الشىء الوحيد الذى أستطاع أن يعلق فى نفسى من حياتى الآخرى ، هو : عائشة .

وتعودت بعد ذلك أن أراها فى كل مرة أعود فيها الى حياتى الماضية .. بل لقد أخذت أتعجل العودة الى تلك الحياة وأفضلها عن هذه الحياة .

وتطور الأمر الى حب متبادل بيننا .. واستطعت ذات مرة أن أخلو وأياها وأعترف كل منا بحبه للآخر .

وصممت على أن أتقدم لخطبتها . عندما فوجئت ذات يوم بأن «عبد الرءوف الدخاخنى» قد خطبها .

وأحسست كأنما مستنى صاعقة .. وعلمت أن أباها قد رضى به لأنه سينقذه من الافلاس .. ووجدت أن الطير قد أفلت من يدى .. أو هو يوشك أن يفلت .

وتملكنى ما يشبه الجنون ، وصممت على أن أفوز بها بأية طريقة .. حتى ولو كلفنى الحصول عليها .. حياتى .. ما قيمة الحياة بدونها !

والتقيت بها خفية فى حديقة الدار .. فوجدتها قد أذبلها الحزن .. وانبأتنى أنها لن ترضى بمخلوق سواى ، وأنهم لن يزفوها الى خطيبها الآخر

الا جثة هامدة ، وافترقنا فى تلك الليلة بعد أن صممنا على أن نهرب سويا قبل أن يتم الزفاف .

وتركتها وتسللت فى جنح الظلام وهممت بأن أقفز من سور الحديقة عندما أبصرنى الحارس ، وظننى الرجل لصا .. وصرخ يطلب النجدة .. وعدا خلفى بعصاه للحاق بى .. وأخذت أعدو فى الظلمة حتى تعثرت بحجر فوقعت على الأرض ووجدته قد لحق ورفع عصاه ليهوى بها على .. ولكنى نهضت بسرعة ، وأمسكت بالعصا فانتزعتها منه وهويت بها على رأسه فخر على الأرض صريعا .



وصمت صاحبى برهة طويلة ، ثم رفع رأسه وقد زاغ بصره ، وقال :

- هذا هو الرجل الذى قتلته .. رجل كان يعيش منذ مائة عام حاول قتلى .. فدافعت عن نفسى بقتله .. ولكنى عندما عدت لحياتى هذه ، وجدت أن القتيل لم يكن سوى «عم محمد» .

ولم يكن أمامى خير من الفرار .. لا لأننى أخشى أن أتهم بقتله .. بل لأنى لاأريد أن يشغلنى شىء عن انقاذها .. أجل .. لقد أضحت المسألة .. مسألة حياتها أو موتها .. فهى مصممة على الا تزف اليه الا وهى جثة هامدة ولابد لى من انقاذها .

ومرة أخرى عاد الى صمته ، ووجدت ذهنى يضطرب بما فيه .

ان صاحبى فى حالة عجيبة لم يسبق لها مثيل .. انه يريد ان ينقذ حياة امرأة ماتت منذ مائة سنة .. ويريد أن ينقذها من زوج لاشك أنها قد تزوجته .. أو تزوجت غيره ، فهو لن يغير فى التاريخ الواقع شيئا .. لأن ما حدث لاشك قد حدث .

لقد حاول أن يعيد الماضى .. وأراد أن يفعل شيئا يستحيل فعله .. وينقذ تلك المرأة مهما بذل من حول وقوة .. ولكن انى له ذلك .

ثم أخذ يهذى كالمحموم الذى تغلبت عليه وطأة المرض ..

وحاولت تهدئته وافهامه أنه مهما كان من صحة قوله فهو يعشق انسانة غير كائنة ، وأن حالته تلك قد سببت له أن يرتكب فى الحياة الأخرى حوادث وهمية .. تظهر نتيجتها الفعلية فى حياته هذه .. وأن القانون لايمكن أن يعفيه من تهمة قتل «عم محمد» الا تحت ظرف .. وهو أنه مجنون .

وطلبت منه أن يكف عن حياته الأخرى ، لأنه فى محاولته انقاذ صاحبته مرة أخرى قد يرتكب جريمة قتل اخرى أو من يدرى .. قد يقتله الحراس فى الحياة الأخرى فماذا تكون النتيجة فى حياته هذه !

وأخيرا طلبت منه أن يهدأ ويستريح .. وأن يترك المسألة للصباح .. فعسى أن يهدينا الله من لدنه رحمة .. ويهيىء لنا من أمرنا رشدا .

* * *

ولكنى عندما استيقظت فى الصباح لم أجده .. وبعد برهة علمت أنه قد عاد الى داره .. وأنبئت أن البواب لم يشعر به الا وهو يهوى من الشرفة فيهبط الى الطريق جثة هامدة .

وظهرت الصحف لتروى خاتمة الحادث تحت عنوان :
«المهندس الذى قتل خادمه ولاذ بالفرار ، ينتحر بالقاء نفسه من الشرفة» .

ولم يدر انسان ماذا يمكن أن تحوى تلك الأسطر من حوادث خارقة .. وانطوت بموته حياته المزدوجة .. التى لم يعرف عنها احد سواى وسواه .

ترى كيف كانت خاتمته فى الحياة الأخرى .. هل استطاع انقاذ صاحبته ؟ ..

* * *

كانت هناك

ولقد عادت لى بعد ذلك ، لتطاردنى فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى على وشك الجنون .. ان لم أكن قد أصبحت بالفعل مجنونا ..

شيخان .. سيد وخادم .. شدهما الزمن برباط من الود متين . والفت الأيام بين نفسيهما فأصبحا لا غنى لأحدهما عن الآخر .. فهما أشبه بانسان وظله ..

أما السيد فهو الأستاذ « الدكتور عبد الله الشنوانى » .. أستاذ علم النفس بالجامعة . عالم من كبار العلماء .. المشهود لهم بالعبقرية والنبوغ ووفرة العلم .. يحيطه عارفوه ومريدوه بهالة من الاجلال والتقدير والاكبار ، ويحيط هو نفسه بهالة من الشهادات ذات الأحرف الأفرنجية المتعددة .. التى قل أن يفكر فى فك رموزها انسان .. وهالة أخرى من المؤلفات والمحاضرات التى غمر بها المكتبات والمعاهد .. وهالة ثالثة من الشذوذ والشرود والذهول الذى يلذ للانسان العادى أن يراه فيمن يتخيلهم أرقى منه .. ولست أظننى مهما حاولت أن أتهكم على الرجل أو أكتب عنه بلهجة ساخرة ، بمستطيع أن أنكر فيه فضلا هو السبب فى كل ما وصل اليه .. وهو فرط الذكاء المقترن بطيب الخلق ، وكرم النفس ، والميل الى فعل الخير .

ويخيل لى أن الرجل قد وجد أن علم النفس اضحى (مودة) هذا الجيل وأن الانسان من فرط ولعه بنفسه قد أقبل عليها يحللها ، ويشرحها ، ويقتلها بحثا وتمحيصا .. فاتجه الى دراسة « علم النفس » وبرع فيه ، كما كان لا شك سيبرع فى أى شىء آخر يوليه نفس الانهماك والاقبال . وقفز الرجل من درجة الى درجة .. ونال الشهادة تلو الشهادة .. وبين عشية وضحاها ، وجد نفسه أستاذا شهيرا ، وعالما جليلا .

فاذا ما غضضنا الطرف عن الرجل كعالم وأستاذ ودكتور وتركنا جانبا مؤلفاته ، ومحاضراته ، وشهاداته ، وتلامذته ، ومقدريه ، وعارفى فضله .. وحاولنا أن نصفه كانسان عادى ... وتعقبناه فى عقر داره .. وجدناه قد جلس فى حجرة نومه لينضو عنه ملابسه .

الساعة الثانية بعد الظهر ، والرجل قد عاد من الخارج .. بعد أن انتهى من حضور أحد المؤتمرات .. التى تعقد وتنفض دون أن يفهم هو منها شيئا .. فهو اما متكلم أو (سرحان) .. ولا تظن بقية الأعضاء خيرا منه ، فكثيرا ما يحتد النقاش بينهم فى أمرهم متفقون عليه .. أو يحاولون اقناع بعضهم بعضا برأى لم يختلف عليه أحد .

ويبدأ الرجل فى خلع ملابسه وقد وقف بباب الحجرة « عم على الليثى » ، خادمه الأمين أو « الفردة الأخرى » كما كان يحلو لبعض الناس أن يطلقوا عليه .. فهو يكاد يكون صنو سيده .. بين أحدهما والآخر شبه عجيب .. ولو حلا لأحدهما مرة أن يلبس ثياب الآخر فخرج « عم على » مثلا من الدار مرتديا بدلة سيده الردنجوت وياقته المنشاة اللتين لا يغيرهما حتى فى هجير بؤونة ، وأمسك بعصاه وتأبط حافظته ، وكبس طربوشه حتى أذنيه .. ووضع على عينيه منظاره السميك .. لما شك أحد فى أن الرجل هو الدكتور « عبد الله » نفسه .. أو لو خطر ببال امرىء ان يجردهما من الثياب ووضع كلا منهما أمام أخيه عاريا لتسبب فى مشكلة كبرى .. اذ يصعب أى نميز الخادم من السيد .. ويزيد المشكلة صعوبة ان الأمر لابد سيختلط عليهما فلا يعرف أحدهما من يكون « الليثى » ، ومن يكون « الشنوانى » .

خلع الأستاذ سترته ، وقذف بها على الفراش ، ثم بدأ يفك أزرار البنطلون وتركه يسقط على الأرض ، ثم خلع القميص ورماه على أحد المقاعد .. ووقف فى أرض الحجرة مرتديا سروالا من الفانلة الصوف غطى ساقيه الرفيعتين حتى القدمين ، وفانلة صوف ذات أكمام طويلة ، ولف وسطه بحزام صوف خمس أو ست مرات ، وعلى رأسه استقر الطربوش ثابتا على أذنيه .

وكان الشهر وقتذاك شهر يونية ، والساعة - كما قلنا - الثانية ظهرا .. ولست أظننى فى حاجة بعد ذلك الى أن أصف النار الموقدة التى كان يستعر أوارها ، ولا « الشرد » الذى كان يهب من النوافذ فيلفح الأجساد .

ووقف « السيد عبد الله » فى وسط الحجرة وبدا عليه التأفف ، فقد كان الصوف يخز جسده ، ومد « عم على » يده بالجلباب الكستور الثقيل ، وسأله الأستاذ مترددا :

- الست ترى ان الجو قد دفى بعض الشىء .. ما رأيك فى أن أخلع الحزام ؟

ولم يجبه « عم على » ولا ظهر عليه حتى أنه قد سمع سؤاله بل دفع اليه بالجلباب وقال له بلهجة حازمة :

- البس بسرعة .. والا تستهوى .

وأسرع الأستاذ بوضع الجلباب على جسده بسرعة .. فقد خاف فعلا « أن يستهوى » .. فقد كان فى مسائل والبرد والحرارة .. وكل ما يمكن أن يؤثر على الصحة يعتمد اعتمادا كليا على « عم على » .. ويثق فيه كل الثقة .

ولم يكن صاحبنا قد خلع بعد طربوشه .. فقد كان رأسه هو نقطة الضعف فيه .. ولم يكن يجسر أن يتركه عاريا لحظة واحدة .. وظل الطربوش جاثما عليه حتى تعطف « عم على » ومد له يده « بالطاقية الصوف » فنزع الطربوش « وكبسها » بسرعة على رأسه .

وبدأ الخادم الهرم يعلق الثياب على المشجب .. وجلس الأستاذ يفرك أصابع قدميه ، ويدفع عصاه فى قفاه فيحك بها ظهره .. ثم سأل الخادم فجأة :

- عم على .

ورفع الخادم اليه عينيه دون أن يجيبه .. واعتبر السيد هذا بمثابة الرد ، وأردف يتم حديثه :

- ألم تستحم منذ شهرين ؟

- آه .. لقد نسيت .

ولم يكن الرجل قد نسى .. ولكن لم يجد ردا أسلم عاقبة من هذا .. وعاد فسأله بعلا برهة :

- ماذا طبخت اليوم ؟

- قرع .

وبدا الانزعاج الشديد على وجهه .. وقال فى استياء :

- قرع ؟ أنا لا أحب القرع .

ونظر اليه « عم على » نظرة رادعة :

- القرع خفيف على معدتك .. القرع المسلوق .

وازداد انزعاج السيد وعاد يكرر :

- قرع مسلوق ؟ ولكن معدتى بخير .

- ليست بخير .

- ولكنى لا أحس بها ألما .. انها بخير .

- وأنا أعلى أنها ليست بخير ، لقد كنت « تتكرع » كثيرا فى الليلة الماضية .

وهز الاستاذ رأسه وأدرك أنه لا فائدة من المناقشة ، فأتخذا الجانب الآمن .. وأجاب الاجابة التى تقيه الشر :

- آه .. لقد نسيت .. معك حق ، وماذا صنعت حلوا ؟

- بلوظه .

وبدأ الاشمئزاز على وجه السيد .. وقال بلهجة المغلوب على أمره :

- كنت أفضل البطاطا .. بطاطا مغمسة فى العسل النحل .. انها تماما كالمارون جلاسيه .. بل وخير منه .

-- هذه أشياء ثقيلة على المعدة .. هذه زمزمة .

- معك حق .. ان شاء الله عندما تصح معدتى سنجرب هذه الأكلة .. عندما تخف معدتى تماما .

ولم يجب « عم على » فقد تحرك خارج الحجرة بعد أن أتم عملية تعليق الملابس وتفريشها .

وجلس الأستاذ يتناول طعامه .. ويدفع بالقرع المسلوق فى جوفه متقززا متأذيا ، وهو يرقب « عم على » الواقف على باب الحجرة بنصف عين .. وقد تملكه منه حنق شديد .. وطافت برأسه صحبتهما القديمة .. وتذكر صباهما وكيف أرسله أبوه معه من البلد لخدمته والعناية بأمره .. كان ذلك منذ أربعين عاما .. وذهب الاثنان الى القاهرة .. فاستقر بهما المقام فى احدى حجرات شارع « ممتاز » بالبغالة .. منذ ذلك اليوم لم يفارق أحدهما الآخر لحظة واحدة .

هل من الانصاف بعد كل هذا ان يوصف « عم على » بأنه كان خادما له ؟

طبعا لا . وهو ليس من الضعة وانكار الجميل بحيث يعتبر الرجل خادما فقد كان له كل شىء : كان الأب ، وكان الأم ، وكان الزوجة .. وكان الشىء الذى لولاه لما كان هو نفسه .. ولما وصل الى ما وصل اليه .. لقد كان المشجع ، وكان النصير .

أربعون عاما .. تقلب كلاهما بين يدى الزمن فى رفع وخفض ، وسراء وضراء .. وهما متلازمان متماسكان .

كم سهر بجواره يعينه على الاستذكار تحت ضوء المصباح الغازى الخافت .. وكم أرق لمرضه ، وجاع ليطعمه .. كم تحمل فى سبيله الأذى والضر .

وبدأت الحياة تبتسم وأخذ يرتقى الدرج شيئا فشيئا ويدأ يسطع نجمه .. وكان « عم على » يعرف واجبه تماما ويعرف كيف يدبر أموره ، ويرتقى بالمسكن والملبس ووسائل العيش حتى يجعلها تتناسب دائما مع مركزه فى الحياة .

ولم يكن هو نفسه له دخل فى هذه الأمور .. بل كان لـ « عم على » سميعا مطيعا .. فهو يعتبر أن الرجل ولى أمره .

وهكذا وجد نفسه ينتقل من « البغالة » الى « جنينة ناميش » الى « جنينة رشيد » الى « المنيرة » .. ولو كان الأمر بيده ، لظل كما كان ، فى حجرته بالبغالة .. ولظل مداوما على الفول والطعمية ، والعسل والطحينة -- وفى حالات اليسر - البيض والعجوة .

أربعون عاما .. لا يستطيع أن يتصور كيف كانت تمر به لولا « عم على » .

وازدرد الرجل آخر قطعة من القرع المسلوق . وأمسك بالملعقة يدفع بها فى « طبق البالوظة » بمنتهى التبرم والاشمئزاز .

ورفع عينيه الى الرجل الواقف بجوار الباب كأنه تمثال لا يتحرك ورمقه بنظرة حنق وغضب ، وعاد يحدث نفسه :

لقد أضحى الرجل لا يطاق ، وأنه ليكاد يضيق به ذرعا وينسى له فضل الأربعين سنة من فرط ما يسبب له من مضايقات ، ما ضره لو استبدل بالقرع بطاطس أو باذنجان ، ثم ما الداعى لهذا الاصرار منه على الحزام الصرف الذى يثقل به بطنه .

ولكن الذنب ذنبه هو .. فهو المستكين المستسلم ، وهو الجاهل الذى لا يعرف من شؤون الحياة شيئا .. لم لايحضر له طباخا ويحضر له بضعة خدم اخرين .. لقد كبر « عم على » ومن الحمق ان يفرض نفسه عليه مدى الحياة .. انه قد أضحى هو نفسه فى حاجة الى من يخدمه ، لقد أضحى متعبا .. ومتعبا . وزاد الطين بلة هذا الصمم الذى أصيب به أخيرا مما يضطره الى الصياح به بضع مرات حتى يستجيب لندائه .. ولقد تعود الرجل أيضا أن يحدث نفسه ، وأن يرى أشياء لا يراها سواه ، أشباحا أو أرواحا أو شيئا من هذا القبيل .. ربما خيالات وأوهاما .. وهو يسبب له بذلك ازعاجا شديدا .. حتى أنه ليخشى أن ينتهى الأمر بأحدهما الى الجنون .

وسمع « عم على » يتمتم لنفسه ببضع كلمات .. فأصابت الاستاذ رجفة شديدة ، ولم يجد خيرا من أن يكلم الرجل حتى يمنعه من الحديث الى نفسه ، فصاح به :

-- عم على ...

ورفع الرجل بصره ولم يجب .. واستمر الأستاذ :

- سيزورنى اليوم ضيف فى حوالى الخامسة بعد الظهر ، أرجو أن تجهز لنا شايا .

وصمت لحظة ثم أردف :

-- ضيف عزيز ورجل محترم من علية القوم .. فأرجوك أن تخرج الطقم الصينى المذهب .

وأشار الرجل برأسه علامة الموافقة .

وعاد الأستاذ يؤكد :

-- الطقم الصينى المذهب .. سامع ؟ لا أريد أن تخجلنى أمام الرجل بالفناجين الفخار الصفراء .

وقام « الأستاذ » ليغسل يديه ، ثم اتجه الى حجرته ليضطجع ومر بالخادم وهو يزيل بقايا الطعام من فوق المائدة فقال له للمرة الرابعة :

– الطقم الصينى يا « عم على » .. لا تنس .

وأشار الرجل بالموافقة دون أن يصيبه أى ضيق من الحاح سيده ، والواقع أن هذا الالحاح من جانب الأستاذ لم يكن فى غير موضعه .. فقد كانت مسألة « طقم الشاى » من المسائل التى ظلت معلقة بينهما لم يحسمها نقاش أو نزاع .

فـ « عم على » يتخذ من طقمى الشاى معيارا يزن به أقدار الناس . فتراه قد قسم الضيوف والصحاب الى قسمين : قسم مرغوب فيه ، وقسم غير مرغوب فيه .. أو كما يقول هو : الأشرار والأبرار ، وهو يصر على الا يشرب الأشرار الا فى الفخار .. أما الطقم الصينى فهو يحتفظ به للذين يود أن يخصهم برضائه ، ويشعرهم باعزازه واكرامه .. وهو يعتبر نفسه فى هذه المسألة .. مسألة الفخار والصينى دكتاتورا مطلقا .. الذى يقرر أهل الصينى وأهل الفخار .

وكان من المحتمل الا تزعج « الأستاذ » هذه المسألة ، وأن يقبل تحكم الرجل فيها كما قبل تحكمه فى غيرها ، لولا أنه يحس أن « عم على » يخلط بين أقدار الناس ، فيقدم الصينى لم لا يستحقه ويقدم الفخار لم يستحقون الصينى . فلم يجد بدا من أن يحذر « عم على » فى كل مرة ويفهمه عن الطقم الذى يجب أن يقدم ورغم هذا التحذير والتفهيم .. كان « عم على » لا يفعل الا ما فى رأسه .

واليوم سيزوره رجل من كبار الرجال ذوى الشأن والمكانة ليستشيره فى مشكلة ألمت به .. وليسأله العون والنصح باعتباره من كبار علماء النفس .. وهو يخشى جدا أن يخجله « عم على » كعادته ، فيقدم « الشاى » للرجل فى الطقم الفخار .. فلم يجد بدا من تحذيره والالحاح عليه .

ودقت الساعة الخامسة ، ودق معها جرس الباب ، وكان الأستاذ قد انتهى من ارتداء ملابسه ، وسمع « عم على » يفتح الباب ، ويدخل الضيف فى سكون الى حجرة الاستقبال فوضع المنظار على عينيه ، وكبس الطربوش

على رأسه ، وهرول لتحية الرجل ، وصادف « عم على » خارجا من الحجرة ، فعاد يكرر عليه للمرة الأخيرة :

الطقم الصينى يا « عم على » .

وهز « عم على » رأسه موافقا كعادته دون أن ينبس ببنت شفة .

وجلس « الأستاذ » يحيى ضيفه ، ويحيطه بما يليق بمكانته ومركزه من آيات الاحترام والاجلال . وجرت بين الاثنين أحاديث سطحية عابرة .. عن الجو .. وعن السياسة .. والغلاء .

وبعد فترة دق الباب ، ثم دلف « عم على » الى الحجرة متحركا ببطء وتؤدة حاملا صينية رصت عليها الفناجين وبراد الشاى وبقيت الأدوات ، وكان الأستاذ موليا ظهره لباب الحجرة فلم ير الرجل حتى لف حوله ووضع الصينية فوق المنضدة .

ونظر « الأستاذ » الى الصينية ، وأحس بخيبة أمل شديدة ! ان الرجل الغبى اللعين قد ركب رأسه وضرب برجائه عرض الحائط .. فلقد أبصر على المنضدة الثلاثة فناجين الفخار ! . وعلام الفنجان الثالث ؟ .. ترى هل ينوى الأحمق أن يجلس فيشاركهما الشاى ؟ من يدرى ؟ قد يفعلها .. فقد تطور فى السنوات الأخيرة فأضحى لا يستبعد عليه أى شىء .

ورفع السيد بصره الى خادمه الذى وقف فى صمت بجوار المنضدة والتقت الأبصار ، وكان كل منهما يستطيع ان يقرأ ما فى رأس الآخر بسهولة .. ولكن فى هذه المرة لم يجد فى عينى خادمه مايقرأ .. فقد بدا عليه شىء من الشرود .. الشرود الذى يبديه وكأنه يرى أشياء غير مرئية ولا ملموسة .. ولشد ما كان ذلك يزعج « الأستاذ » ، ويخيفه ، فأمر خادمه أن يغادر الحجرة لأنه سيصب الشاى بنفسه .

وأخذ الأستاذ يصب الشاى ، وبدأ صاحبه يقص قصته .

قال الرجل : ان مسألته من المسائل التى يصعب على العقل البشرى

تصديقها ، فهو مصاب بشيء لا يحس به سواه ، وهو يخشى أن يقصه على الناس فيتهموه بالجنون ، ولذا فقد لجأ اليه لأنه يعتقد فيه سعة العقل وهو لا شك سيستطيع أن يفهمه جيدا . كان الرجل يعرف فى صباه امرأة من بنات الهوى .. وحملت منه المرأة فحاول اجهاضها عبثا .. وحان وقت ولادتها فنقلها الى احدى المستشفيات ، وكانت ولادتها عسيرة مضنية .. وأخيرا وضعت الجنين .. وماتت هى ، وأوصته بابنها خيرا وهى تلفظ آخر أنفاسها .

ورشف الرجل من فنجانه الأصفر رشفة طويلة وعاد يقول :

- لتتصور يا سيدى موقفى وأنا فى السنة النهائية من الدراسة .. وأنا أعيش فى بيت والدى الرجل القاسى الصارم .. وقد انجبت ابنا ، لا أم له .. ولا انسان يحمل عنى عبئه .. لقد حملته الى أحد الفنادق .. واستأجرت واياه غرفة .. آويه فيها .. حتى استطيع ان أدبر أمرى وأمره .

وكانت ليلة عاصفة شديدة البرد ، والريح تعوى فى الخارج عواء ذئاب ضارية . وينفذ فحيحها الى الحجرة من خلال النوافذ كأنه فحيح الأفاعى .. وأجهدت رأسى لكى اجد لى مخرجا من مأزقى . وأخيرا مر بذهنى خاطر عجيب .. استطعت بواسطته أن أتخلص من حملى الى الأبد .

لقد خطر لى أن هذه الريح العاوية خير من يحمل عنى عبئى .. فلو فتحت لها النافذة وسمحت لها بالدخول لحظة وأطلقت قرها على الطفل .. فانها لا شك ستكون القاضية .. وسيموت الطفل دون أن يكون هناك أى مظهر مظاهر الجريمة .

وبعد لحظة كانت الريح تزأر فى الحجرة .. والطفل يرتجف ويرتعد .. وفى الصباح قضى الأمر .. وذهبت الى الدار بعد أن القيت عنى ما أثقل كاهلى !

وصمت الرجل برهة شرد فيها ذهنه وعاد يتمتم :

- لقد ظننت أننى تخلصت من العبء نهائيا .. فلقد ذهبت الأم .. وذهب الطفل ، وأصبحت حرا طليقا من كل قيد .. ومرت بى الأيام وأنا أغترف من

ملذات الحياة حتى شبعت وارتويت .. ثم شعرت اخيرا بحنين الى الاستقرار والى أن يكون لى زوجة وبيت وأولاد . وفعلا تزوجت .. ووضعت امرأتى أول طفل .

وفى ذات ليلة .. ليلة ليلاء سوداء .. أحسست بالنافذة تفتح على مصراعيها وبالريح تتدفق من النافذة وبعد بضعة أيام مات أبنى .

وقد تقل أن الحادث مجرد صدفة .. وقد كنت أستطيع أن أقنع نفسى بذلك . لو لم أرها بعينى رأسى تعدو منطلقة من الحجرة بعد أن فتحت النافذة .

من هى ؟ .. المرأة القديمة ، التى قتلت ابنها . لقد عدوت خلفها وهى تعدو الى الباب بعد أن فعلت ما فعلت وحاولت أن أهوى على رأسها بعصاى هذه .. وذهلت زوجتى وحاولت أن تمسك بى .. لأنها لم تستطيع أن تبصرها كما أبصرتها .. وظنتنى أتخيل خيالات ..

ولقد عادت لى بعد ذلك . لتطاردنى فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى على وشك الجنون .. ان لم أكن قد أصبحت بالفعل مجنونا .

وصمت الرجل وبدأ الأستاذ يهدىء من روعه ويوهمه أن ما به عقد نفسية ناتجة عما يحسه من تأنيب الضمير على الجرم الذى ارتكبه .. وأنه ليس هناك أية امرأة تطارده .. وأن النافذة قد فتحتها الريح .

وأخيرا خرج الرجل بعد أن هدأت نفسه بعض الشيء وأقبل « عم على » ليحمل صينية الشاى .. وتذكر الأستاذ مسألة الفناجين وكيف أخجله « عم على » مع الرجل بالفناجين الفخار فضغط على أسنانه وصاح به ناهرا لأول مرة فى حياته :

– ألم أقل لك أن تقدم الطقم الصينى .. لقد كررت عليك الرجاء مائة مرة .. ماذا أصنع بك ؟

ونظر « عم على » اليه وقال بهدوء :

– الطقم الصينى ليس به سوى فنجانين ! .

- ومن قال لك أننا نريد أكثر من فنجانين ؟

وصمت « عم على » برهة وهز رأسه وقال وهو يحمل الصينية ويغادر الغرفة ببطء وثقل ، وفى عينيه النظرات الشاردة التى تظهره كأنه يرى أشياء خفية :

- لم أكن أظن أن المرأة التى تبعت الرجل .. ستنصرف دون أن تحتسى الشاى .

★ ★ ★

صوت مجهول

... ولم استطع أن أقول غير ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من الحديث التيلفوني ؟ من كان المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ .. ولم ؟

كنا صحبة نسمر ذات ليلة .. وتشعب بنا الحديث ذو الشجون ، فاذا به يخوض بنا فى العالم المجهول ، عالم الأرواح ذى اللجج العميقة والمجاهل والمضال وألقى كل منا بما يعرف .. وما لايعرف .. وبدا حديثنا أقرب الى الترهات والأباطيل .. والأقاويل والأضاليل .. ولم أجد فى كل ما قيل أكثر من خبطات عشواء فى غياهب شك ، وظلمات ترجيم .

وتتابع الحديث ، واحتدم الجدال .. كل يسوق الأدلة ويضرب الأمثال .. وكان بيننا زميل طبيب لزم الصمت فما فاه ببنت شفة .. واستمر ينصت ولا يتحدث حتى أفرغنا ما فى جعبتنا من هراء ولغو وهذيان .. ثم رأيته يهز رأسه ببطء كأن هناك ما يحيره ويشغل ذهنه مما لايود قوله .. وقلت له متسائلا :

– ما بالك ؟

– لاشىء .. خير لنا أن نكف عن الحديث فى الموضوع .. فنحن أعجز من أن نستطيع فهم حقيقته ، أو ادراك كنهه .. وخير لنا أن نقنع بظواهره من خفاياه والا نحاول كشف غياهبه .. فكلما ازددنا توغلا فيه ازداد

علينا حلكة وتعقيدا .. لندع العالم المجهول .. مجهول كما هو .. ولنق انفسنا خطر علمه .. فلقد صادفتنى حادثة .. لها بهذا العالم صلة . حاولت أن أفحص فيها وابحث وأجد فى التعليل والتفسير .. ولكنى لم أفز بطائل .. ونأيت بذهنى عنها خشية الجنون وقبلتها على علاتها .. وفزت من العلم بسلامة العقل .

وصمت الطبيب برهة استعاد فيها الحوادث الى ذهنه .. ثم قال :

– لست أدرى .. لم كنت أول من لجأ اليه خادمه عندما وجده ميتا فى مقعده .. ولكن أغلب ظنى أن الخادم نفسه لم يخطر على باله أن سيده مات فعلا ، عندما اقتحم عليه غرفته بعد أن وجده قد تأخر فى الاستيقاظ على غير عادته .. ففوجىء بأن يراه قد تمدد على مقعده الضخم بجوار آلة التليفون وهو بكامل ملابسه .. ولم تخطر على بال الرجل فكرة الموت .. بل ظن أن المسألة لاتعدو اغماء بسيطا فأسرع فى استدعائى .

وبدت وفاة الرجل للمسئولين وفاة طبيعية .. لا دخان حولها ولا غبار عليها .. فقد مات الرجل بالسكتة القلبية .. ولم يكن هناك أى أحتمال لأن يقال شىء غير هذا .. ومع ذلك فقد كنت احس فى قرارة نفسى بما ينبئنى أن فى وفاة الرجل شيئا خفيا .. لقد كنت أعلم أكثر من غيرى .. أن الرجل ذو قلب سليم قوى .. فقد كشفت عليه منذ بضعة أيام ، ولم أجد به ما يبعث على القلق ..ثم ما معنى تلك التعابير العجيبة التى ارتسمت على وجهه الميت ؟

كنت أعرف الرجل منذ سنين خلت .. فقد كنا جيرانا فى المعادى .. ولم تكن داره لتبعد عن دارى الا مسيرة دقائق معدودات .. وعرفته فى أول الأمر كرفيق قطار .. تشابهت مواعيدنا .. فتكرر لقاؤنا فى القطار ذهابا وعودة .. حتى كنت لايكاد يمر على يوم دون أن أبصره .. ولم يكن هناك بد .. والأمر كذلك – خاصة وان الرجل لم تكن تبدو عليه سيماء شر .. ولا مخائل سوء – من أن تنشأ بيننا صداقة عابرة لايزيد مظهرها عن ايماء بالرأس ، وتبادل بضع كلمات عن الجو ، والسؤال عن «الصحة» .

كان الرجل اسمر الوجه حليقه .. على شىء من البدانة والترهل وثقل الحركة .. وكان يبدو فى الحلقة الخامسة من عمره أبرز ما فيه مظاهر الطيبة

التى تبدو فى قسماته ، والتى تعززها تلك المسبحة التى لاتفتأ حباتها تنزلق بين أصابعه .. وتلك الهمسات غير المسموعة التى تتمتم بها شفتاه .

وازدادت بيننا أواصر الصداقة .. فعلمت أنه رئيس قلم فى احدى المصالح ، وأنه يملك فوق مرتبه دخلا ثابتا من أرض لزوجته مما يجعلها فى بسطة من العيش .. خاصة وأنهما لم ينجبا أبناء .. وبمر الأيام بدأت أتبادل مع الرجل الزيارات المنزلية فوجدته وزوجته مثلا لزوجين راضيين قانعين ، يجد كل منهما فى قناعته بصاحبه أقصى متعته فى الحياة .

وعندما أقول زوجان راضيان قانعان قد يبدو ذلك الوصف طبيعيا بالنسبة لأى زوجين .. لأن المفروض فى الزوجين قناعة كل منهما بصاحبه .. ولكنى من جانبى أرى أن الوصف على شىء من الغرابة .. لأنى لا أعتقد ان القناعة شىء طبيعى من جانب الرجل - وليعذرنى الرجال على هذه الصراحة ، فكلنا فى الهوى سواء - لأن الرجل خلق بطبعه شديد التعطش الى النساء .. لاتروى غلته أمرأة واحدة .. ولا اثنتان .. ولا عشرة .. ولا مائة .. فهو دائم التطلع الى كل حسناء يقع عليها بصره .. قد يختلف الرجال فى قدرتهم على كبت ذلك التشوق واخفاء تلك اللهفة .. وقد يتفاوتون فى مدى تهافتهم أو السيطرة على نفوسهم .. ولكن ما من شك فى أنهم فى بطونهم رجل واحد يتمنى أن يرتمى فى أحضان أول حسناء تصادفه .. حتى ولو كانت له مائة زوجة .

وعلى ذلك فقد كنت أرى فى قناعة الرجل بزوجته .. وفى رغبته عن سواها وزهده فى غيرها .. حتى ولو بمجرد التطلع أو الحديث شيئا يستدعى منى التقدير والاعجاب .. وكنت أدهش من ذلك الامعان منه فى النأى عن كل ما يتصل بالنساء وبسيرتهن .

وعندما زادتنى الأيام معرفة بالرجل وبزوجته بدأت أسائل نفسى :

ترى أذلك الاخلاص منه والوفاء مبعثهما شعور صادق بالقناعة والرضا .. أم أن مبعثها ليس سوى خشية المرأة والخوف منها ؟ . لقد كانت الاجابة عن ذلك أمرا عسيرا .. فالرجل ممثل جيد .. لا يستطيع الانسان

بسهولة أن يسبر غوره .. ولكنى كنت أميل الى الاعتقاد الأخير -- لا لأنى من أنصار المبدأ القائل بأنه لايوجد فى الدنيا رجل قنوع بامرأته قناعة حقيقية غير مكره عليها - بل لأن المرأة فعلا كانت من نوع شديد السيطرة ، قوى الشكيمة .. تتحكم فى كل شىء ، وتتصرف فى كل تافهة .. وكان هو سميعا مطيعا ، راضيا قانعا .. أو هكذا كان يبدو .. فقد كان كما قلت ممثلا جيدا .

وفى ذات يوم أصيبت المرأة فجأة بنزيف فى الرئة .. وأخذ مرور الأيام ينهش من حياتها حتى تركها جسدا طريح الفراش هزيلا نحيلا .. وعندما ماتت لم يكن فى موتها أية مفاجأة .. فقد كانت نتيجة منتظرة محتومة .. ولا أظن الرجل الا قد حزن عليها ، وان كان قد حاول جهده أن يبدو متمالكا متماسكا وبأن يتذرع بالصبر والايمان وبـ «انا لله وانا اليه راجعون» وبدا عليه هزال شديد فى الفترة التى أعقبت الوفاة .. وكان دائم الوجوم والأطراق .. وخيل الى أنه يقاسى الم الفرقة والوحدة .. حتى وجدته بعد فترة من الوقت يسترد نفسه .. ويعود الى سابق حالته .. لانحول ولا ذبول .. ولا وجوم ولا اطراق .

ولم أجد فى أمر الرجل شيئا من الغرابة .. لأنى أعلم أنه ما من نعمة منّ الله بها على عبيده خير من نعمة النسيان .. وأنه ما من حزن أصاب الانسان الا وكان الزمن كفيلا بمحوه .. كل شىء فى الحياة الى الزوال مصيره .. حتى الأحزان ، والأشجان .

أقول أننى لم أدهش فى أن يعود الرجل الى نفسه .. ولكنى دهشت كثيرا عندما وجدته قد عاد الى أكثر من نفسه .. لقد لمحت به كثير تحول وتبدل .. فما عاد يعرض عن سير النساء أو يتجنب الحديث عنهن كما كان يفعل قبل وفاة زوجته .. وما عاد يخشى أن يبدى اعجابه بهذه أو بتلك .. وذهب عنه قديم زهده ، وسابق تعففه .. وبالطبع لست أقصد بقولى هذا أن الرجل قد تحول فصار زير نساء .. أو أنه قد بات صائد غوان أو مطارد ظباء .. فانه مازال كما هو بطيبته وحيائه .. ولكنى تبينت ذلك التحول من طريقة حديثة .. فقد بدأ يكشف الحجاب عن نفسه ، ووضح لى أنه مخلوق مثلنا يستملح ويتمنى

ويشتهى ، ولم أشك وقتئذ فى أننى كنت على حق عندما ظننت أن مبعث زهده وعفته كان خشية من أمرأته التى كانت شديدة السيطرة عليه .

وصادفت في بضعة مرات أمرأة من أصدقاء زوجته تزوره في داره .. امرأة لا أظن هناك أصدق من وصفها من «بنت حنت» ولم يكن من العسير أن أكتشف أن صاحبنا مفتون بها .. فقد كانت توجد فى نفسه حالة سرور ونشوة ، ولم يكن يتورع من أن يخلع عليها ألفاظ المديح والثناء .

وفى ذات يوم – ولم يمض على وفاة الزوجة الا أشهر معدودات – بدا لى من حديث الرجل أن به رغبة فى زواج المرأة .. لولا أنه يخشى بعض أقاربه الذين سيعارضون فى ذلك .. ولست أدرى أى شيطان جعلنى أتمنى فى ذلك الوقت أن أرى زوجته فى قبرها حتى أخرج لسانى لها ولغيرها من المخدوعات فى مسألة الوفاء الزوجى وفى قناعة الرجل وزهده .

ومرت الأيام ، وأنا أحس أن الفكرة قد اختمرت فى نفسه ، وانه قد يقدم عليها فى أية لحظة رغم معارضة أقربائه حتى وجدته يقبل على ذات مرة فى دارى وقد بدا عليه قلق ظاهر .. وجلس يتحدث الى وهو يحاول أن يبدو طبيعيا الى أن قال فجأة :

– اسمع .. وقع لى اليوم حادث غريب يحيرنى أشد الحيرة .. لقد غادرت مكتبى فى هذا الصباح لفترة قصيرة وعندما عدت أنبأنى حاجب المكتب ان سيدة طلبتنى فى التليفون وطلبت منه بأن يذكرنى بأن أحضر الفستان من «التنتلارى» فقد مضت عليه مدة طويلة .. وأدهشنى قول الرجل دهشا شديدا .. فان زوجتى قبل وفاتها قد أرسلت أحد ثيابها لتنظيفه ، وما زال الثوب هناك حتى الآن .. ولا أظن أن هناك من يعرف أمره الا أنا ، وهى ، وصاحب المحل .

مسألة غريبة ! ولست أنكر أن دهشى لم يكن أقل من دهشه .. ولكنى حاولت أن أجد تفسيرا لأخفف من قلقه فقلت له أن المتحدثة لابد قد أخطأت الرقم ، وأنها قد تكون زوجة موظف آخر لها فستان تريد من زوجها احضاره وأن المسألة قد حدث فيها التباس .

وبدا لى أن الرجل يحاول جهده أن يقنع نفسه بما قلت .

وفى اليوم التالى أقبل على الرجل وهو أشد تجهما وأكثر قلقا وأنبأنى أن المحادثة تكررت .. وأنه لم يجد بدا من الذهاب لاحضار الثوب .. وعندما عاد به الى الدار اقبل عليه الخادم ، وقد بدا عليه الانزعاج وانبأه أن سيدة تحدثت فى التليفون وقالت انها «المرحومة» وطلبت منه عندما يحضر سيده الفستان أن يعلقه فى الدولاب الأوسط .

ولولا ما كان يبدو على الرجل من ذعر شديد لانطلقت مقهقها فانى لم أشك أن المسألة عبث عابث .. وان ماجنا يحاول أن يهزل مع الرجل هزلا ثقيلا .. واخذت أهدىء روعه وأفهمه أن الأمر لايمكن أن يكون الا مزحة بلهاء ..

وعلمت ان الرجل متعب الأعصاب . وأن تلك المزحة الخبيثة قد صادفت من نفسه مرتعا خصبا للازعاج .. فنصحته أن يأخذ اجازة وأن يخلد الى الراحة التامة .

وصرفتنى عنه ظروف العمل ثم لقيته بعد ذلك بأسبوع .. فهالنى امره .. اذ وجدته قد أصابه هزال شديد وبدا شاحب الوجه غائر العينين .. وسألته فى دهش عما أصابه .. فأجاب لاشىء .. وعدت ألح عليه فى السؤال قائلا :

– لابد أن يكون هناك شىء .. أما زالت تقع تلك المحادثات التليفونية ؟

وتنهد الرجل تنهيدة طويلة كمن يرزح تحت عبء ثقيل ، ثم قال فى ذهول :

– فى كل مكان أذهب اليه .. أجد منها رسالة تليفونية تنتظرنى .. فى المقهى .. وفى النادى .. وفى المكتب .. وفى المنزل .. وأؤكد لك ياسيدى أن المحادثات لايمكن أن تكون مزحة مازح .. ففى معظم الأحيان أجد فيها اشياء عن الماضى لايعرفها الا هى ، وأنا ..

– قد تكون المسألة مجرد توارد خواطر .

– مع من ؟ انها تذكرنى أحيانا بأشياء أكون قد نسيتها تماما .

– ولكن هذه الأشياء لاشك موجودة فى عقلك الباطن .

– ياسيدى ! لاتدعنى اتهمك بالسخف ! من تظن ذلك الذى يظل يطاردنى بين القاهرة والمعادى لينقب عما فى عقلى الباطن لكى ينقله الى فى التليفون بعد ذلك ؟ . ثم هناك أمر آخر ، هل تصدق أننى ذهبت لزيارة بعض الأقارب فوجدتهم فى حالة ذعر مخيف وأخبرونى أنها قد طلبتنى قبل ذلك بلحظات وأن من ردت عليها استطاعت أن تميز صوتها تمام التمييز . انها تعرف كل مكان أذهب اليه ، حتى ولو ذهبت اليه فجأة .

ولم أدر بم أجيب الرجل .. فقد كانت أعصابه محطمة ، ولم يكن هناك فائدة من الحديث معه .. وعندما فحصته طبيا وجدته سليما معافى ليس به الا اجهاد جسمانى ناتج عن الأرق .

وهدأت روعه بعض الشيء وحاولت أن أفحص المسألة معه فى هدوء ... قلت له :

– هب أن ذلك الذى يطلبك حقا زوجتك .. ماذا تظنها تريد منك ؟

قلت ذلك وأنا أتوقع منه أن يجيب بأنها تريده الا يتزوج .. ولكنه هز رأسه قائلا :

– لاشيء .. انها لم تذكر ذلك الشيء الذى قد خطر ببالك .. كل ما تطلبه أشياء بسيطة تافهة كالتى كانت تطلبها فى حياتها .. أو تذكرنى بأن أفعل كذا وكذا .. ولاشيء أكثر من ذلك .. ويخيل لى أنها بذلك تحاول أن تقحم نفسها فى حياتى مرة أخرى وأن تستعيد نفوذها على .

– وماذا يخيفك من ذلك .. فدعها تفعل كما تشاء .. حتى تمل من تلقاء نفسها وتتركك .

– ياسيدى العزيز .. ان أكثر ما أخشاه أمر واحد .. ان محادثاتها تقترب منى شيئا فشيئا .. أعنى أننى لا أكاد أذهب الى مكان حتى يخبرونى

أنها تحدثت منذ دقيقة أو دقيقتين .. ولست أدرى والله ماذا يمكن أن يحدث لى اذا ما رفعت السماعة ذات مرة .. فسمعت صوتها ..

أجل لشد ما يخيفنى ذلك فما أظن أن هناك امرءا قد خاطب الموتى قبل ذلك .. ان ذلك الأمر يسبب لى ذعرا شديدا .

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى أبصره فيها الرجل على قيد الحياة . فقد رأيته بعد ذلك عندما استدعانى الخادم . فوجدته ممددا على مقعد بجوار التليفون وقد تدلت السماعة بجواره .. وارتسمت على وجهه علامات ذعر شديد .. وقال الخادم انه سمع جرس التليفون يدق فى المساء .. ثم سكن الرنين فأدرك أن سيده لابد أن يكون قد أجاب عليه .

وفى الصباح وجده على حاله تلك وقالوا ان الرجل قد مات بالسكتة .. ولم أستطع أن أقول غير ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من الحديث التليفونى ؟ من كان المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ . ولم ؟

★ ★ ★

وصمت الطبيب وارتسمت على وجوهنا علامات دهش شديد .. ورأيتنى أفكر فى كل ما قال .. وأحاول أن أجد له تفسيرا .. انى شخصيا لا أومن بالأرواح ولا بالعالم المجهول .. ولكنى أومن بالبشر ، وبعقل البشر ، ورداءة البشر .. لست أدرى لم ذهب ذهنى .. الى أقارب الرجل الذين كانوا يكرهون زواجه فى المرأة التى كانت على وشك أن يتزوج بها ثانية .. الا يمكن ان يكونوا هم الذين دبروا تلك المحادثات التليفونية لاخافة الرجل حتى حطموا أعصابه .. الا يمكن أن تكون واحدة منهم هى صاحبة المحادثة التى تسببت فى قتله ؟ أم ترى أن الصوت كان حقا من العالم المجهول ؟ . من يدرى ؟

★ ★ ★

هذا البيت لي

كم أود الانطلاق من هذه الدار .. أن روحي حبيسة فيها . انى أود الانطلاق الى ماهو أكثر رحابة وسعة .

استقر بهم المقام أخيرا فى هذه الدار الرحبة الواسعة بحلمية الزيتون .. ولم يكن صاحبنا ليصدق انه يستطيع الحصول فى هذا الوقت الذى استبدت فيه أزمة المساكن وارتفع ايجارها على مثل هذا المسكن بمثل هذا الأجر ..

من يصدق هذا ؟ «فيلا» من بابها .. خمس حجرات متسعة وبدروم وحديقة مترامية الأطراف بخمسة جنيهات وبلا «خلو رجل» .. لقد كانت بلاشك صفقة عجيبة .. أغلب الظن أن أحدا لايعلم بخلو الدار ، والا لما استطاع الحصول عليها بمثل هذه السهولة .. انها مسألة حظ لا أكثر ولا أقل .

ومضت الأيام القلائل الأولى ، والزوجة منهمكة فى تنظيف الدار وتنظيم الأثاث بمساعدة الخدم .. أما هو فقد جعل الحديقة من نصيبه ، فانهمك هو وابنته فى تشذيبها وتهذيبها واصلاحها بعد طول اهمال ..

وانصرم الأسبوع الأول وهم فى حركة دائبة حتى أعادوا الى الدار رونقها وجمال مظهرها فأحسوا بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ومرت بهم الأيام ، قريرين هانئين . وجلس الأربعة ذات مساء فى الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة ، وقد اضطجع الأب على أحد المقاعد المريحة ومد ساقيه على حافة الشرفة ، وجلست الأم وبيديها ابرتين وقطعة من الصوف وبكرة من الخيط تنسج له صديريا ، وبجوارهما ركع الابن والابنة - فى الثانية عشرة والتاسعة من عمرهما - يلهوان باحدى اللعب ..

وندت عن الأب تنهيدة ملؤها الارتياح ، وقال فى لهجة راضية :

- هذا مكان نموذجى للكتابة .. ان حجرة المكتب بذلك المنظر الذى تطل عليه .. والهدوء الذى يسودها .. لاتصلح الا لأن تكون مهبط وحى .. ولشد ما أخشى الا ينسب الفضل بعد ذلك فيما أكتب لى .. بل للمكان الذى اكتب فيه .. اذ يبدو لى أن أى انسان يحل به سينقلب نابغة عبقريا .

ولم يكن صاحبنا بالكاتب المقل أو المرفه الذى لايستطيع أن يكتب الا فى أجواء معينة ، ولكنه مع ذلك كان يصاب فى بعض الأحيان بقحط ذهنى .. يجعله فى حالة ركود تام .. ولم يكن يخشى بذلك أن يموتوا جوعا .. فقد كان له دخل ثابت يقيهم شر العوز .. ومع ذلك فقد كان يكره أن يتوقف عن الكتابة .. اولا : لأنه يجد فيها متعة .. وثانيا .. لأن المزيد من الكتابة يعنى المزيد من النقود .. وما من انسان - كائنا من كان - لايريد مزيدا من نقود .

وضحكت امرأته وقالت :

- أجل .. ان المرء ليحس فيه هدوءا عجيبا ! . بعد هذا الضجيج الذى قاسيناه سنينا فى بيت «العباسية» .. ضجيج الترام وصخب العربات والأوتوبيسات ، وصياح الباعة ، أن ما نحس به لاشك رد فعل لطول ما ملأ آذاننا من ضجة دائمة لاتهدأ .

وصمتت لحظة ثم أردفت وهى تتنهد فى ارتياح عجيب ، ومازالت أصابعها دائبة فى عمل التريكو :

- هذا البيت كان لى أمنية العمر .. كنت أتمنى أن أسكن فى «فيلا» ذات حديقة غناء .. لايشاركنا فيها انسان .. كنت أتوق الى هذه السكينة و هذا الخلاء

وتلك الشمس التى تسطع فى كل مكان من أنحاء الدار .. والهواء الطلق الذى يسرى فى انحائها ، والى تلك الخضرة والنظرة التى تمتد على مدى البصر .. كل هذا كان منتهى أملى ..

ومد الأب يده فتناول سيجارة من علبة على منضدة بجوارها واشعلها ، ثم أخذ منها نفسا طويلا وقال معلقا :

– وأعجب ما فى الدار أنك لاتحسين بها وحشة أمثالها من الدور العتيقة الواسعة .. أو المنازل الخلوية ، فهذة الحجرات الرحبة والجدران الضخمة والأسقف العالية .. وهذا الفضاء من حولنا .. كان يجب أن يكون له وحشته .. ومع ذلك فما أحسست له وحشه قط .

– هذا نفس ماأحس به .. أمر عجيب ! انه دائما (ونس) ماشعرت بالوحده فيه قط .. وماأحسست وأنا فى حجرتة أن الحجرة خاليه .. واننى وحدى .. رغم انه قد لا يكون بها سواى ان جدرانه السميكة لا تمنع الضوء .. فليس به تلك الأركان المعتمه التى تعودناها فى الدور القديمه ، انى ما أحببت بيتا كهذا وما أحسست بالاستقرار كما أحسست فيه .. انه كأنما قد بنى من اجلنا .. حتى الأثاث يبدو فى الحجرات كأنه قد عمل خصيصا له .. لقد منحنا الله به نعمه كبرى .

وران الصمت ، وسادت السكينة ، لا تقطعهاالا هبات من نسيم الصيف تعبث بأطراف الشجر ، أو صيحات تنبعث من الطفلين الراكعين المنهمكين فى اللعب بين آونه واخرى .

وشردت الام بذهنها .. واستعادت لنفسها قولها :

«ما أحسست وأنا فى حجراته أن الحجرة خالية» .

وكيف يحس انسان بالوحدة فى هذه الدار .. ؟

انها تذكر ذات مرة .. أو مرتين .. وقد وقفت أمام دولاب الفضية تلمع ما به من أوان .. انها أحست أن زوجها أو أحد الأطفال يجلس على

المنضدة .. واستمرت منهمكة فيما تقوم به .. وهى لاتشك أن هناك انسانا معها فى الحجرة حتى التفت فجأة .. فأدهشها الا تجد هناك أحد .

ومرة اخرى وقد هبطت الى الحديقة .. ثم عادت الى الدار فوجدت زوجها يقف بالباب وقد حملق فيها دهشا .. وسألها :

– متى هبطت الى الحديقة ؟ لقد خيل الى أنك تجلسين فى الصالة .. !

وهكذا .. دائما .. لا يكاد الانسان يشعر أنه وحده .. بل يحس دائما أن هناك .. من يجلس هناك .

وتنبهت السيدة من شرودها على صوت الخادمة تقول :

– العشاء جاهز .

وجلس الأربعة على المائدة ، وبدأ الابن والابنة عراكهما الطبيعى على من يجلس على الكرسى ، أو ذاك .. أو على من يأكل هذه القطعة ، أو تلك .

وصاحت بهما الأم بانذارها التقليدى الذى لم يكن لها بد عنه :

– هس .. ويعدين .. ؟

وجرى الحديث خلال العشاء بين الأربعة ناعما لطيفا لايخلو من الضحك والنهر والزجر والشكوى والمطالب حديث نموذجى لعائلة قريرة .

وصاح عمر – الابن – مبلغا احدى شكاواه لابيه :

– «بابا» .. «كوثر» كسرت سن القلم الذى أعطيته لى .

واندفعت كوثر – الابنة – مدافعة عن نفسها :

– أبدا «يابابا» هو الذى كسره .

– كذابه .

وقال الأب مهدئا :

– لا بأس سأحضر لك بدله .

ومضت فترة صمت قصيرة .

بدا «عمر» كأنما قد سرح بذهنه فى مسألة عويصة ، ثم سأل فجأة :

- بابا ..

- نعم .. ؟

- أليس أسوأ من الوحدة .. الا تستطيع الوحدة .. عند ما تريد الوحدة .. ؟

- لا أفهم ما تعنى .. ؟

- ألم تقل «ماما» أن البيت «ونس» وأننا لانحس بالوحدة أبدا .. ؟

- أجل ..

- هذا شىء يضايق .. فأحيانا يريد الانسان أن يكون وحده .. ولكن هذا البيت لانستطيع .. لابد أن يكون هناك أحد معنا ..

- لم تقصد «ماما» أن هناك أحدا معنا فعلا . بل هو مجرد شعور «بالونس» .. مجرد احساس بالراحة لأننا لسنا وحيدين .

- ولكنى أحس بأن هناك أحدا معنا فعلا .

- ماذا تعنى أيها «الحمار الصغير» .. ؟ هذا وهم ..

- ليس وهما .. لقد وضعت بالأمس علبة دودة القز على الدولاب فوجدتها فى الصباح ملقاة من النافذة .. ووجدت العلبة فارغة فى الحديقة ولم أجد الدود .. وأول أمس وجدت كاوتش الدراجة ممزقا .. ووجدت زجاجة الحبر قد سكبت على كراسة الرسم .

ونظر الأب الى «كوثر» بعين الاتهام .. ولكنها قالت بصوت فيه رنة بكاء :

- والله يا «بابا» مانا ..

وقال «عمر» مؤكدا :

– ليست هى .. انى متأكد .

وتدخلت الأم :

– قد يكون أحد من الخدم .. لم لم تخبرنى حتى أعرف من منهم فعل ذلك ؟

– أنا متأكد أن أحدا منهم لم يفعل .. ان الذى فعل .. هو ذلك الذى لايتركنا منفردين .. انه ذلك الذى يسبب لنا «ونساء» ، والذى نحس به أنه دائما هناك .. انها هى لاشك فيها .. فانى أحس أنها تكرهنى .

وصاح به الأب ضاحكا فى سخرية :

– من «هى» هذه التى تتحدث عنها ؟ ثم ماذا يجعلك تظن انها «هى» وليس هو .. ؟ هل تظن أن بالدار عفريتا .. أيها الأبله ؟ هذه أوهام عجائز .. ! ليس هناك شىء اسمه عفاريت .. هل أنبأك أحد من الخدم ان الدار مسكونة ؟

واجابت كوثر :

– لقد سمعنا بائع اللبن ينبىء «أم على» أن البيت به عفريتة .

– الحمار ابن الحمار .. ! لا تصدقا كلمة واحدة مما قال .. هذه كلها خرافات .

وذهب الأطفال للنوم ، ولم ينس الأب أن ينادى «أم على» ويزجرها بشدة ، وينهاها عن أن تخيف الأطفال مرة ثانية بهذه الخزعبلات التى يسمونها عفاريت .. وأجابت الخادمة :

– وانا مالى .. دا بتاع اللبن .

وفى اليوم التالى روعت الأم وهى فى المطبخ بصرخة استغاثة ، وهرولت الأم فاذا بابنها معلق فى فروع احدى الاشجار ، واذا بالسلم الخشبى ملقى على الأرض .

ورفعت له السلم ، وهبط الصبي وجلا خائفا ، وأمسكت الأم بأذنه تعركها في غيظ قائلة وهي تلهث من فرط الخوف :

– هذه المرة كان عنقك يوشك ان يدق .. ألم أقل لك مائة مرة .. كف عن هذه الشقاوة والشعبطة على الأشجار !

وجرت دمعتان على خد الطفل محدثتين مجريين في وجهه المترب وقال وهو ينشج :

– لقد قلك لك أنها تكرهني ، انها هي لاشك التي دفعت السلم من أسفل قدمي .. !

وأحست الأم برجفة تسري في جسدها ، وسألت في ذعر :

– من هي التي تكرهك ؟ لابد أن السلم قد انزلق من تلقاء نفسه .

– أبدا .. جربي .. لقد كان مثبتا في الأرض جيدا .. انها هي .. دائما تلاحقني بهذا العبث .

وعندما سمع الأب بما حدث هذه المرة كان أقل سخرية .. ونظرت اليه الأم في دهشة وهو يتلقى النبأ في صمت واطراق .

وأخيرا رفع رأسه قائلا :

– لاشك أن هذا بله منا . اننا سعداء جدا .. وان البيت نموذجي .. فكيف نحاول أن نفسده بهذه الأوهام .. مارأيك ؟ هل نترك البيت ؟ هل تعتقدين حقا أنه مسكون ؟ وأن به عفريتة تكره الولد ؟

– لا أستطيع أن أصدق مثل هذا القول .. وان كان ذلك لايمنع من أنه يسبب لنا قلقا ذهنيا .. يجعل راحتنا وهدوءنا موضع الشك .. من ناحيتك أنت ، أريد أن أسألك هل كتبت كما تود ؟ هل أعانك على الكتابة ؟ هذه نقطة هامة يجب الا نغفلها اذا كنا ننوي التفكير في المسألة جديا .

– حتى الآن .. لا .. لأني لم انو الكتابة فعلا .. ولم اجرب بعد .. ولكني سأحاول اليوم الكتابة .

وفى هذا اليوم أغلق الأب على نفسه حجرة المكتب .. ولم يغادرها الا فى منتصف الليل . وعندما فتحت الأم عينيها لتبصره يأوى الى فراشه .. بدا لها متعبا مكدودا .. فلم تشك فى انه استطاع أن يقضى وقتا مفيدا ، وأنه لابد قد انتج شيئا .

وقضى اليوم الثانى بأكمله فى مكتبه .. لم يغادره الا لتناول الطعام . وكان يبدو عليه الارهاق ، وبدا متثاقلا خابى العينين ولم يكن منظرة يبعث كثيرا على الاطمئنان والسعادة .. كان شبه محموم .

وفى اليوم الثالث لم يغادر المكتب حتى الطعام .. ولم يتناول سوى فنجان من القهوة ، وفى المساء ترك الحجرة وسار الى أمراته محطما مهدما كأن على كتفيه ما أنقض ظهره . ومد يده اليها فى سكون بورقه مكتوبة ، وقال فى صوت ضعيف خافت :

– هذا كل مااستطعت كتابته .. الحمد الله .. لقد انزاح العبء .

وبعد لحظات كان يغط فى نومه .

وفحصت المرأة الورقة فى دهشة . كانت مكتوبة بخط يده وكانت الكتابة متناثرة على الورقة يمينا ويسارا ، وكان الخط رديئا كأنما كتبه بيده اليسرى أو كأنه كان يكتبه وهو يرتجف محموما .

وبدأت المرأة فى القراءة :

«هذا البيت لى .. هذا البيت لى .. لى وحدى .. لقد كان دائما لى .. لو استطاع أبى لوهبه لى .. ولما ساء أخى هذا .. فما كان البيت يهمه كثيرا ، فقد قضى حياته بعيدا عنه .. انى لم أكره أخى قط ، رغم أنه ورثه دونى ، فقد سمح لى بالبقاء فيه ، ولقد أسفت على موته .. ولم أحاول أن أكره امرأته كذلك .. اذ كانت امرأة تافهة لاتستحق الكره .. وكانت تنوى أن تغادر الدار بعد موته ، ولكنها بقيت من أجل ابنها الذى آلت اليه الدار بعد موت أخى .. لقد كنت أكرهه .. كان طفلا مقلقا .. مزعجا ، وكنت أتمنى أن أهدأ وحدى فى الدار وأنعم بسكينتها .. وأخذت انتظر وأنتظر حتى آلت الى أخيرا ..

بعد أن سقط الصبى من السلم ودق عنقه .. وبقيت فى الدار وحدى .. كما كنت أتمنى دائما .. ومع ذلك فما أحسست بأية متعة .. انى قلقة حائرة .. انى ضالة شاردة .. انى لم أقصد قتله .. لقد دفعت السلم من أسفله ولكنى لم أقصد قتله .. لقد أخذ الندم يحرقنى بعد ذلك حتى أقدمت على الانتحار .. ولكنى مع ذلك لم أحس راحة ولا استقرار .. كم أود الانطلاق من الدار .. أن روحى حبيسة فيها .. أود الانطلاق الى ما هو أكثر منها رحابة وسعة .. رب خلص روحى من هذا الأسر . هذا السجن الذى طالما تمنيت البقاء فيه .. انى أحس الآن بشىء من الراحة بعد أن اعترفت بجرمى .. وبعد أن لفظت تلك الجمرات التى تحرق نفسى . الرحمة يارب» .

وأحست الأم بيدها تمزق الورقة اربا .. وهبت نسمة نثرتها فى الهواء .. وعندما استيقظ الزوج بدا كأنه قد أبل من مرض طويل وداء عضال .. والتصقت به الأم وهى ترتجف وسألته فى صوت خافت :

– هل نغادر الدار ؟

– لا داعى .. لقد انطلقت هى ..

ومنذ ذلك اليوم لم يعد يحس أحد من أهل الدار بأن هناك دائما من يجلس هناك .



خذني معك

فالتفت اليها مشدوها . ووضعت العلبة على المنضدة .. واقتربت من الفتاة وهمست بها «ما بك ؟» فأجابتنى «أنقذنى . خذنى معك» !

دعانى صديق فنان ذات يوم لزيارة احدى الدور القديمة فى حى «طولون» لنشاهد بعض آيات الفن القديم . واتفقنا على أن أمر بداره فى الساعة الرابعة بعد الظهر . وتناولت الغداء فى ذلك اليوم ثم استلقيت فى غفوة قصيرة استيقظت على أثرها فاذا بالساعة قد بلغت الرابعة .

وارتديت ملابسى على عجل ، وأسرعت الى دار صاحبى . ولكنى أنبئت أنه انتظرنى طويلا فلما طال تأخرى اضطر للخروج .. فلم أشك فى أنه قد سبقنى الى الدار التى نقصدها فأخذت طريقى اليها .

ووصلت الى الدار .. ووقفت على درجها الحجرى المتسع .. أتأمل جدرانها الضخمة الشاهقة المبنية على الطراز العربى القديم .. وقد علت الأتربة حجارتها وكساها القدم لونا داكنا موحشا ، فبدت كأنها احدى القلاع الحصينة .

وصعدت الدرجات المؤدية الى الباب ووقفت برهة مترددا وقد تملكتنى رهبة وخشية ، ثم مددت يدى فطرقت الباب الخشبى الضخم بالمقبض الحديدى

المثبت فيه .. ووصل الى أذنى صدى الطرقات ثم ساد بعد ذلك سكون عميق .. جعلنى أجزم أنه ما من أحد بالدار .. وان صاحبى لاشك لم يصل بعد ، وهممت بأن أعود أدراجى عندما وصل الى أذنى من الداخل صوت أقدام تقترب ، وفتح الباب .. وبدا لى من خلاله عبد أسود .. قد وضع على رأسه عمامة ضخمة بيضاء ، وارتدى سروالا واسعا وسترة مطرزة بالقصب .. وبدا لى كخدم القصور فى العصور الغابرة .

ونظر الى العبد نظرة فاحصة ثم وجدته ينحنى فى احترام بالغ ويطلب منى التفضل ..

دلفت الى الداخل فاذا بى فى صالة رحبة متسعة الأرجاء عالية السقف قد شاعت فيها الظلمة ، لا يكاد يصل اليها الضوء الا من خلال النوافذ العالية ذات الزجاج الملون .

واستطعت أن ألمح على الضوء الباهت النقوش العجيبة والزخارف الرائعة التى نقشت على السقف والجدران . وعبرنا الصالة التى لم يبد لى فيها شىء من الاثاث الى ممر ضيق طويل حيث وجدت عبدا آخر شديد الشبه بالخادم الأول وقد انحنى لى عندما مررت به حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه .

وتملكنى دهش شديد .. فما كنت أتوقع أن أرى فى الدار آثارا حية .. كهؤلاء الخدم الذين يبدون لى كأنهم جزء من الدار بل كنت أتوقع أن أرى أحد موظفى الآثار يتولى ارشادنا والشرح لنا .

وأدهشنى أكثر من ذلك الا أجد فى الدار أى أثاث أو أى مظهر من مظاهر الحياة يستدعى وجود هؤلاء الخدم «الأرستقراطيين» بل كانت الدار خاوية ، حتى بدا لى الخدم كأنهم بعض العمد أو بعض التماثيل .

وانتهيت من هذا الدهليز الى حجرة أخرى.. وجدت فيها أول مظهر من مظاهر الحياة .

وتلفت حولى فى شىء من التردد والخشية .. فوجدت الحجرة قد رص بها أحد تلك الأطقم المذهبة الدقيقة الصنع .. وقد غطيت أرضها بسجاجيد

عجمية فاخرة تغوص القدم فيها . وعلقت على النوافذ والأبواب ستائر فخمة زرقاء .

ووقفت في منتصف الغرفة حائرا لاأدرى ماذا فعل ، فلقد تركني الخادم الأسود الذى كان يتولى قيادتي .

وبعد فترة أحسست بوقع أقدام تقترب .. وفوجئت بصوت نسائي يهتف من ورائي :

- أهلا .. وسهلا .

وتلفتّ في دهشة .. فوقع بصرى على امرأة في منتصف العمر ، وفتاة لاتتجاوز العشرين .

وتملكني ذهول شديد .. فما كنت أتوقع قط أن أرى في الدار نساء .. وبدأ الأمر يختلط علي .. فلم أشك في أنني قد أخطأت الدار .

وهممت بأن أقول شيئا للسيدة أوضح به ما يحتمل أن يكون قد حدث من خطأ ، ولكني وجدتها تقترب مني فتشد على يدى مرحبة ، وتقول باسمة :

- لم أشك في أني سأعرفك لأول وهلة .. فان بك شبها شديدا من أبيك .

ولقد كان بي حقا شديد شبه بوالدى .. ولكن كيف عرفتني السيدة وكيف عرفت والدي .. لقد أوشكت أن أجن من فرط الدهش .

وجلست السيدة والفتاة واتخذت مجلسي بجوارهما واخذت افحصهما بنظرات سريعة فوجدت السيدة نصفا في العمر وفي الشكل وفي الحجم ، ولكن آثار الارستقراطية تبدو عليها واضحة في كل حركة لها ولفتة ، أما الفتاة فقد استرعت مني التفاتا أكثر ، اذ كانت جميلة حقا .. وان كان جمالها من نوع حزين صامت ، ففي جسدها نحول ، وفي وجهها شحوب ، وقد تهدل شعرها الحالك على كتفيها ، وبدت عيناها تشعان بسحر عجيب .

ولم تكد تمضي لحظة قصيرة تبادلنا خلالها بضع كلمات ترحيب حتى أقبل خادم يدعونا للشاي ، ووجدت السيدة تنهض وتتقدمنا الى حيث أعد الشاي .

ودلفنا من حجرة الى أخرى حتى وصلنا فى النهاية الى شرفة فسيحة من النوع القديم المسمى «بالمشربية» ، تتكون من خشب دقيق الصنع كأنه الدنتيلا ، وبالشرفة أريكة متسعة قد فرشت بالحشايا والوسائد المغطاة بالأطلس ، وفى وسطها منضدة مستديرة من المرمر ثلاثية القوائم قد وضع عليها غطاء رقيق مشغول «بالبرودريه» وصفت عليها ادوات الشاى من أطباق مذهبة وأكواب فضية منقوشة ، وفناجين رسمت عليها رسوم دقيقة .

وجلسنا حول المنضدة وبدأ الخدم يحضرون الشاى فى ابريق فضى جميل ثم بدأوا يحضرون الفطائر والأطباق الملأى بأنواع الفاكهة الفاخرة .

وخيل الى أن المسألة انما هى أضغاث أحلام .. فقد ذكرنى كل هذا بما سبق أن قرأته فى ألف ليلة وليلة .. وقلت لنفسى ماذا يضيرك أن يكون حلما أو غير حلم أقبل على المتع التى أمامك واذكر قول الخيام «ويلتا أن ضاع يومى من يدى» .

وبدأت السيدة الحديث ففهمت منها أن بين أسرتينا ودا قديما .. وأننا كنا نوشك أن نكون أنسباء ، فقد كان جدى على وشك الزواج من أمها .. لولا أن حدث سوء تفاهم بين أبويهما أدى الى نزاع شديد ..

وفهمت كذلك أن الفتاة ليست ابنتها ، كما كنت أعتقد ، بل أبنة أخيها وهى تتكفل بها بعد أن مات أبوها وأمها .

وانتهينا من تناول الشاى عندما حضر احد الخدم فانحنى أمام السيدة ثم اقترب منها وهمس فى أذنها بضع كلمات فوجدتها تنهض مستأذنة قائلة أنها ستعود بعد بضع دقائق .

وانصرفت السيدة .. ووجدت نفسى قد خلوت الى الفتاة الحزينة الشاحبة التى تبدو فى رقتها كأنها طيف .. وأحسست بدافع قوى يدفعنى الى الحنو عليها والى أخذها بين ذراعى واسناد رأسها على صدرى .. ولكن الحياء كان يمنعنى .. وبدأ الارتباك يتملكنى .. وأخرجت من جيبى علبة سجائرى محاولا التشاغل بالتدخين .

ولم أكد أفتح العلبة حتى سمعت الفتاة تهتف باسمى هامسة فى لهجة ملؤها المرارة والحزن ، فالتفت اليها مشدوها .. ووضعت العلبة على المنضدة .. واقتربت من الفتاة وهمست بها «ما بك ؟» فأجابتنى «أنقذنى .. خذنى معك» ! .

ومددت يدى فضغطت على يدها .. ووجدتها قد نهضت وسارت بى خارج الشرفة هابطين بضع الدرجات المؤدية الى الحديقة ..

ونفذ الى أنفى عبق الزهور فملأنى نشوة وزاد مشاعرى ارهافا ، وجلست والفتاة على مقعد تحت احدى الخمائل .

وتحدثت الفتاة فأنبأتنى أن عمتها سترغمها على الزواج من عشيق لها – للعمة – تخشى أن يهجرها فهى تود ان تربطه بالفتاة الصغيرة حتى تضمن بقاءه الى جوارها .. وانها تلقى من عمتها عذابا أليما .

وأحسست والفتاة تبثنى شكواها .. كأن هناك مغناطيسا يشدنى اليها ، وبدا لى كأننى لم ألقها منذ لحظات فقط .. بل كأننا أحباء العمر .. ووجدتنى أمسك بيدها فأضعها على شفتى ثم احتويت جسدها الرقيق بين ذراعى .. وضممتها الى فى رفق وأسندت رأسها الى صدرى ، ودفنت وجهى فى شعرها . ومضت لحظة والفتاة هانئة فى صدرى .. ثم رفعت الى عينيها العجيبتين وقد كستهما عبرات تترقرق .. ووجدت شفتى تقتربان من شفتيها فتضغطان عليهما .. ثم أغمض كلانا عينيه ورحنا فى نشوة .

وفجأة سمعت صوت العمة ينادى الفتاة ووجدتها تقف منا على قيد خطوات .

وفزعت الفتاة .. ورأيتها تنظر الى المرأة نظرة متوسلة .. كأنها تسألها شيئا ، ولكن السيدة هزت رأسها فى جمود وقسوة وأجابت فى اقتضاب :

– اذهبى ..

وسارت السيدة ، وسرنا وراءها حتى وصلنا الى الشرفة فسألتنى أن اتبعها لتريني بقية الحجرات .

وعدنا أخيرا الى الشرفة فلم أجد الفتاة ، بل أنبأنى أحد الخدم أنها تعتذر الى لاصابتها بوعكة مفاجئة ، وأنها كلفته أن يحمل الى سلامها .

وأحسست بلوعة شديدة ، وتمنيت لو أدفع نصف عمرى لأرى الفتاة الحزينة الجريحة القلب .. ولكن السيدة مدت الى يدها مودعة سائلة اياى أن أزورها دائما .



وخرجت من الدار .. وسرت فى الطرقات .. وأنا أجد نفسى فى تمام اليقظة فلا حلم ولا وهم .. وكان أول ما فعلته هو أن ذهبت الى بيت صاحبى فقصصت عليه كل ما حدث .

وقهقه صاحبى عاليا وانبأنى أن البيت كانت تسكنه حقا العائلة التى ذكرت اسمها ، ولكن ذلك كان منذ سبعين عاما ، ثم أكد لى أن كل ما رأيت انما كان وهما أو حلما .

وفى اليوم التالى ذهبت واياه الى الدار ، ووجدنا أحد موظفى الآثار فى انتظارنا ودخلنا الدار بعد أن فتح الباب بمفتاح فى جيبه .. وأحدث الباب صريرا وكأنه لم يفتح منذ شهور أو أعوام .

وسرت فى الدار فوجدت بها شبها بالدار التى زرتها بالأمس ولكن الأتربة كانت تعلو الأرض والجدران ولم يكن هناك أى أثر للحياة ، لاخدم ، ولا سكان ، ولا حجرة استقبال ولا شرفة .

ونظر الى صاحبى ضاحكا فى سخرية .. وهززت رأسى فى دهش شديد وأقنعت نفسى أن كل ما رأيت انما كان أوهاما ، وانتهينا من التجول فى الدار .. وهممنا بالخروج .. عندما سألت الدليل عن حديقة الدار .. فأنبأنا أنها حديقة مهملة ليس بها ما يستحق الرؤية .. ثم دلف بنا فى عدة ممرات ليقودنا اليها .. وفجأة وجدت نفسى فى شرفة الأمس ! .

أجل ! . لقد كانت هى نفس الشرفة .. وقد بدأ منها منظر الحديقة والخميلة والمقعد الذى جلسنا عليه .. وبدت فيها الأريكة ولكنها كانت عارية من الحواشي والوسائد ، وأشرت لصاحبى الى آثار الأقدام المزدوجة التى تبدو بالحديقة .. وقلت له : «ما رأيك» .. «فأجابنى» : «هذه حتما هى آثار الجناينى الذى يروى الحديقة» .

وأحسست بشىء من الخذلان .. وتلفت فى الشرفة فاذا بالمنضدة المستديرة المصنوعة من المرمر قد توسطتها خالية من كل شىء . لا مفرش .. ولا أدوات للشاى ولكن شيئا واحدا هو الذى كان عليها وهو علبة السجائر ، علبتى أنا التى نقش عليها اسمى .. والتى أخرجتها بالأمس ثم تركتها على المنضدة .

وتناول صاحبى العلبة فى دهش شديد .. ولم ينبس ببنت شفة .. ماذا حدث ؟ وكيف ؟ من يعلم !

ومر الحادث دون أن أجد له تفسيرا أو تعليلا .. قد يكون وهما أو حلما ، ولكن شيئا واحدا هو الذى يجعلنى أكاد أوقن بأنه حقيقة .. وهو تلك الصور التى أرانى اياها الدليل لأهل الدار .. والتى وجدت واحدة منها صورة طبق الأصل للفتاة الشاحبة الحزينة .. التى احتويتها بين ذراعى فى الخميلة .



مات قريراً

لقد رأيت طفلة ، أو شبح طفلة بيضاء باهتة ، تنحنى على الفتى الراقد باسمة وتمد يدها فتأخذ منه القرط .

بدأت دباباتنا سيرها فى عجلة تجاه الشمال ، فقد أنبأتنا الرئاسة أن العدو احتل ببعض عرباته موقعا يشرف على الطريق وأن علينا اجلاءه بكتيبتنا حتى نطهر الطريق ونعيد المواصلات بيننا وبين القوة الموجودة شمالا .

كان الوقت قبيل الفجر ، ولم نؤخذ بالأمر على غرة ، فقد قضينا الليل فى يقظة دائمة ، اذ كانت المعركة دائرة على أشدها ، وكان الدوى يسمع فى كل مكان ، واللهب يبرق هنا وهناك مبددا حلكة الليل .

كان العدو قد بدأ هجومه الغادر .. واستعر أوار المعركة فى شتى المواقع .. وأخذت مشاتنا ومدفعيتنا تصلياته نيرانهما فتردانه على أعقابه ملوما محسورا .. مخلفا وراءه بساطا ممتدا من جثث القتلى ، تاركا الأرض وقد بدت مكدسة بالأجساد كأنها ورقة الذباب .

وقضينا الليل نرقب وننتظر .. معدين عرباتنا ودباباتنا للانقضاض فى أية لحظة .. حتى وصلنا الأمر قبيل الفجر بالانطلاق لطرد العدو .. فانطلقنا .

وطلبت من اليوزباشى «محسن» قائد ثانى الكتيبة أن يأمر السرية الأولى بأن تتخذ مكانها فى المقدمة لكى تستكشف مواقع العدو وتعجم عوده وتستطلع قوته ، على أن يكون قائدها على اتصال دائم بنا لكى ينبئنا اولا بأول بكل ما يعرف .

وبدا عليه التردد ، ثم تساءل قائلا :

– ان السرية الأولى يقودها «قدرى» وهو كما تعلم مريض ويتولى قيادتها بدله الشاويش «قرشى» .. شاويش السرية .. فهل ندعه يقوم وحده بالاستكشاف ؟ .

وفكرت برهة ثم أجبته :

– دع السرية الثانية تعمل فى المقدمة ، واجعل الأولى فى الاحتياطى .

وهم بالانصراف لتنفيذ الأمر ، ولكنه توقف كأنما قد خطر له خاطر جديد وقال متسائلا :

– ولكن لم لا أتقدم أنا مع السرية الأولى للقيام بالاستكشاف ؟ .. هل لديك ما يمنع ؟

– أبدا .. اذهب اذا شئت .

وبعد لحظة كان قد اتخذ مكانه فى احدى دبابات السرية الأولى متوليا قيادتها ، متقدما بها على رأس الكتيبة لاستطلاع قوة العدو .

ووقفت فى برج دبابتى أرقبه يتباعد بسريته .. وبدت الدبابات على خط الأفق سوداء قاتمة وقد علا حولها الغبار وأخذ ضجيجها يخف رويدا رويدا .. حتى لم نعد نبصر منها الا أشباحا باهتة ، ولا يصل الى آذاننا من صخبها وضجتها الا ما يشبه الهمهمة والهمس .

وتحركت رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. ولاحت لنا الشمس تتسلل من وراء الأفق خلف الربى والآكام .. حمراء الضوء .. أرجوانية الشعاع .. كأن بها جرحا يدمى .. وكأن اشعتها القانية دماء تراق على رمال الصحراء .

ايه ياشمس ! .. لقد رأيت شروقك فيما مضى .. فكنت ابصر في حمرته لون الورود ولون الخدود .. لشد ما تنكرت وتغيرت واستبدلت بشعاع الورد شعاع الدماء .

أم ترى التغير قد أصاب العين التى تراك .. فلم تعد تبصر منك الا صورة لما حولها من دماء ولهيب ؟

وتحركت رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. وثارت من حولنا الضجة وعلا الغبار وانتشرت بضع دبابات ذات اليمين وذات اليسار لتحمى القوة فى أثناء تقدمها .. وأخذنا نمعن فى السير .. وبين لحظة وأخرى تحمل الينا رسالة من سرية المقدمة بأن العدو لم يبد بعد .. حتى وصلتنا الاشارة الايجابية الأولى تحمل فى طياتها «أن العدو قد ظهر ببضع عربات عن يميننا» ، ثم رسالة أخرى «بضع عربات عن يسارنا» ورسالة ثالثة تتساءل «هل نشتبك ؟» .

وتناولت سماعة اللاسلكى ،، وطلبت «محسن» على الجهاز واستفهمت منه بشيء من التفصيل ، ثم أمرته بالاشتباك .

ووقفنا منتشرين فى أماكننا واتخذت الدبابات بقدر الاستطاعة سترا من ثنيات الأرض .. وحملت الريح الى آذاننا أولى الطلقات تدوى من بعيد .. فعلمنا أن الاشتباك قد بدا .

واستمر الدوى .. يعلو حيناويخفت حينا .. ووصلت الينا الرسالة بعد الرسالة تنبئنا أن الاشتباك مستمر وأن العدو يجاوب نيراننا بما ملكت نيرانه ، وأن المعركة على أشدها متأججة اللهب مستعرة الأوار .

وفجأة وصلت الى رسالة احسست منها بهزة فى جسدى كأن هناك مطرقة أصابت مؤخرة رأسى .. ولم يكن ما جاء بها أكثر من «أصيبت دباباتى» .

ولم تمض بضع ثوان حتى تلتها طرقة أخرى .. أو طعنة أخرى .. أصابت حشاى .. ولم تكن سوى «أنى أموت» .

أجل .. أن «محسن» يموت .

وثوان أخرى وتحدث عامل اللاسلكى يقول أنه قد مات .

انى أبكى وأنا أكتب ما أكتب ، رغم أنه لم يكن لدى وقتذاك فرصة لبكاء .. فقد سلبتنى قسوة الموقف كل ما بى من حس وشعور .. وكان يخيل لى أنى لم أعد من دم ولحم ، بل من حديد وحجارة .. وكنت أشبه بانسان ألقى به فى بحر من الجليد فجمدت أطرافه حتى فقد حساسيته .

فى ثوان معدودات قضى صاحبى .

أجل .. لقد انتهى فى كلمتين : انى أموت .. ثم .. مات . وكما قلت لم يكن هناك وقت لحزن أو بكاء .. أو حتى للتفكير فيمن مات .. أيا كان .. حتى ولو كان الميت أنا !

ان كل ماتبقى فينا من حس هو الاحساس بالواجب .

نحن فى عمل .. ولابد لنا من انهائه .. فاذا مات واحد منا أو متنا جميعا .. فذلك أمر ثانوى .. أو قل انه أمر مفروض . هل هناك حرب بلا موتى ؟ .. وما فائدة الطلقات والنيران والأسلحة .. اذا لم يقتل بها بعضنا بعضا .

ذلك هو الشعور الذى كان يخيم علينا وقتذاك .. شعور القسوة والجمود .. أو اللاشعور .. الذى يجعلنا نتجاوز عن الحزن لنستمر فى تأدية واجبنا .. كأننا لم يكن لنا بموتانا أدنى صلة .

وهكذا اندفعت أتمم واجبى ، آمرا احدى السرايا بالتقدم لمعاونة سرية المقدمة فى اشتباكها مع العدو ، متقدما معها .. حتى استجلى الموقف بنفسى .

وبدأنا نقترب من أرض المعركة ، ولاحت لنا دباباتنا وقد تشابكت مع العدو الرابض عن يمينها ويسارها .. وقد بدا لنا أنها قد زجت بنفسها فى مأزق حرج .. وأن العدو يوشك أن يفنيها جميعا بعد أن حاصرها بنيرانه ، ووجدت أن من الأفضل أن أحاول تطويق العدو بها ، وأن آمر بحركة التفاف واسعة النطاق حول أحد جناحيه .

وأمرت السرية بالتوقف قبل ان نتورط فى مرمى نيران العدو .. وطلبت من قائدها وهو الملازم «على يحيى» أن يقوم بحركة الالتفاف المطلوبة .. وافهمته أن لا فائدة من التقدم الى السرية الأولى لأنه سيتردى فى المصير ذاته ، وأن خير طريقة لانقاذ من تبقى منها واجبار العدو على الانسحاب ، هى حركة الالتفاف التى شرحتها له .

ووجدته ينظر الى وقد بدا فى قسماته حزن شديد ولاحت عليه علامات التردد .. كأنه يعترض على ما قلت ، ويود أن يبدى رأيا آخر ، وسألته فى عجلة :

ماذا ؟ ..

ووجدته يضغط على نواجذه كأنه يحبس فى جوفه شعورا يوشك أن ينطلق .. وعدت أسأله :

– ماذا تريد ؟

ورأيت فى عينيه طبقة لامعة من الدمع الحبيس وسألنى فى صوت مكتوم وهو يشير برأسه الى حيث السرية الأولى مازالت تتبادل الطلقات مع العدو .

– ومحسن ؟

– ماله محسن ؟

– جثته ؟ .. هل سنترك جثته للعدو ؟ .. لابد أن نحضرها .

وأحسست بالجمود الذى أصاب مشاعرى يتفتت ويذوب . وقفزت الدموع الى محاجرى وهممت – لولا بقية من تجلد – بأن اندفع فى البكاء .

لقد عدت مرة اخرى انسانا .. وهاج قول صاحبى الصغير حزنى .. وأثار مشاعرى .. وبدا لى أن من الواجب علينا أن نحضر جثة «محسن» .. ولكن كان من الجنون أن نتقدم الى أرض المعركة فى احدى الدبابات .. فقد كان غرضا ظاهرا .. وكان العدو لابد مرديها ومصيبيها فى الصميم .

وكأنما ادرك «يحيى» ما يجول بخاطرى .. فقال فى اصرار وتأكيد :

– انى على استعداد أن أتسلل على قدمى وازحف الى هناك .. وأؤكد لك انى سأحضرها فى بضع دقائق .. لن نتأخر .. أؤكد لك ..

ولم يكن به من حاجة لاقناعى .. فقد كنت أنا نفسى متلهفا على احضار الجثة العزيزة .. وفى غمضة عين حزمت أمرى .. وقلت له أنى سأذهب معه .

وبدأنا التسلل والزحف .. منتفعين بسواتر الأرض والأعشاب والثنيات حتى بتنا فى منطقة النيران .

هل يستطيع انسان منكم أن يتصور الجحيم ؟

لقد كنا فيه بلا جدال !

كيف لا .. وقد كدت أوقن أنى لم أعد على قيد الحياة .. وأن ما تبقى منى ليس الا روحا تطوف بجهنم .. وساءلت نفسى فى دهشة .. انى يارب مسلم .. فماذا دفع بى الى هذا الحميم ؟

والتفت الى صاحبى الصغير فسمعته يبسمل .. فلم أشك فى أنه قد خطر على باله ما خطر لى .. وأنه قد تخيل أنه ليس سوى روح يصلى سقر !

ووصلنا أخيرا .. والنار من حولنا ومن فوقنا . ووقع بصرنا على دبابة «محسن» .

ونظرت اليه .. ونظر الى .

هل تعرفون الجمر .. الجمر الأحمر المتأجج الذى لاتبصر فيه سوادا ولا بياضا .. بل قطعة حمراء .. صافية الحمرة .

لقد كانت الدبابة كذلك .

لقد حرقت الدبابة .. ولم يكن بها أثر لدخان .. أو هباب ، بل كانت جمرة حمراء يشع منها الصهد .. وتلفح وجوهنا منها حرارة لاسعة .

ولم نتكلم .. بل بدأنا العودة واجمين فى صمت واطراق .. وقد شرد ذهنانا شرودا شديداً .

وبدأنا العودة متسللين ، كما جئنا ، وسط عاصفة النيران .

ولكن العودة لم تكن سليمة اذ أصيب صاحبى الصغير بشظية فى جنبه أردته على الأرض .. وهو يئن أنينا خافتا .

ووجدت الفتى قد راح ضحية رقة مشاعره ومشاعرى وأنه كان من الواجب على الا ألين .. وأن أترك الموتى لرحمة ربهم .. وأستمر فى واجبى حتى لا أضيف الى الموتى ، ضحايا جديدة .

وبهذه المشاعر المتحجرة تركت الفتى ملقى على الأرض منه تنزف الدماء ، واندفعت الى السرية الواقفة تنتظر فأمرت أحد ضباط الصف أن يحمل بعض الضمادات الى الجريح ويقوم بعمل الاسعافات الأولية حتى ننتهى من مهمتنا .

وبدأت أدفع السرية حول ميمنة العدو ، آمرا سرية اخرى بتطويق ميسرته .

وأحطنا بالعدو .. ودارت بيننا وبينه معركة كبرى .. انتقمنا منه لأنفسنا شر انتقام ، ودمرنا عددا كبيرا من مصفحاته وأكرهناه على الانسحاب .. تاركا حطامه وقتلاه ، راضيا من الغنيمة بالاياب .

انتهت المعركة وقد قارب اليوم على الانتهاء ، وأحسست بتعب النهار وسهر الليل يحط على جسدى .. وبدأنا نلم شعثنا ونعود أدراجنا للتجمع والرحيل .

وكان أول ما فعلت هو السؤال عن الصاحب الجريح .. فوجدته قد تمدد بجوار احدى العربات .. وهو يلفظ آخر انفاسه .

ركعت بجواره وانا أحس بأحشائى تتمزق كأن فى جوفى من الشظايا أضعاف ما بجنبه ، وتمنيت لو استطعت أن أفعل له شيئا .. أى شيء !

لم لاتقوى أماني الأحياء على احياء الموتى ؟ .. لقد كانت بنفسي من الرغبة في اعادته الى الحياة ما أستطيع به أن أحيي جيلا من الموتى ، فلم لم يبعث حيا ؟ .

لقد جلست بجواره .. وأمسكت بيده بين كفي .. وأحس بي ففتح عينيه .. ولاح على شفتيه شبح ابتسامة . ثم قال في صوت خافت :

- كيف الحال ؟

- انتصرنا وطردناهم من مواقعهم .

- الحمد لله .

وكانت المرة الأولى في حياتي التي أجلس فيها الى انسان يموت .. وأي انسان ! .. انسان جاد بروحه في سبيل جثة صاحبه !

وسمعته يتمتم بصوت خافت :

- اني سعيد .

ولم أدرى ماذا أقول له .. وخفت أن ينطلق دمعي .. فجاهدت حتى كبته ، وقلت له في رفق وحنان :

- ألا تريد شيئا .. الا أستطيع أن أؤدي لك أي شيء ؟

- كنت أريد شيئا واحدا لا أظن هناك من يستطيعه ! كنت اريد أن أرى ابنتي مرة واحدة ! مرة واحدة فقط .. لقد أوصتني بأن أحضر لها هدية عند عودتي .. ولقد ابتعت لها قرطا عندما ذهبت الى «بيت لحم» .

ومد يده الى جيبه فأخرج قرطا صغيرا ، وأردف قائلا :

- اعطها هذا القرط .. وقبلها لي .. كم كنت أريد أن اعطيها اياه بنفسي .. فليس هناك أحب الى من أن أحمل لها الهدايا .

وصمت لحظة تمالك فيها أنفاسه وعاد يتمتم في صوت خافت :

- أريد أن أراها .. مرة واحدة .

وأغمضت عيني .. فقد كان قوله اقسى على نفسي وأشد ايلاما من أقسى وسائل التعذيب والايلام .. كيف لا .. وهذا الانسان الجميل النفس والقلب ، لا يطلب أمنية قبل موته الا أن يعطى ابنته الطفلة هديتها الصغيرة !

وفتحت عيني .. فأصابتني رعدة .. اذ أبصرت أمامي أمرا عجيبا .

لقد رأيت طفلة .. أو شبح طفلة بيضاء باهتة .. تنحنى على الفتى الراقد باسمة ، وتمد يدها فتأخذ منه القرط ، ورأيت وجهه يتهلل بشرا . ومد ذراعيه فاحتواها بينهما وقبلها فى عطف وحنان . وفى لمح البصر تلاشت فى الهواء .. ولم أعد أبصر سوى الفتى وقد أغمض عينيه وبدت على وجهه أبلغ آيات السعادة والهناء .. وأحسست ببرودة تسرى فى جسدى .

لقد .. مات .. انتهى .

كيف حضرت الطفلة ؟ .. كيف ذهبت ؟ .. لقد كانت لاشك من بنات الأوهام .

ان ما رأيت لم يكن الا من فعل الخيال المجهد المكدود .

وبحثت عن القرط فى يده .. أو فى يدى .. فلم أجده .

أجل لقد كانت المسألة كلها من صنع وهمى وخيالى .

وثوى صاحبى فى باطن الأرض .. وغاب فيها .. كما غاب أصحابه من قبله وكما سنغيب من بعده .

وعدت الى القاهرة بعد ذلك .. وحملتنى قدماى لأؤدى الرسالة .. ولقيت زوجته .. ولقيت ابنته .

يالله ! .. لقد كانت نفس الطفلة .. لا تفترق عن الشبح الذى رأيت ، سوى أنها نموذج حى .

وفى أذنها وجدت القرط ..

كيف وصل اليها ؟ .. لم أجسر على السؤال !

صفقة عجيبة

هذا الرجل العاقل الرزين .. قد باع عربته لشبح من عصر محمد على .. وهو يقص القصة بمنتهى الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة .. ماذا أقول له ؟ .

منذ بضعة أيام ساقتنى الصدف الى لقاء «متولى افندى عبد الرحيم» مدرس الرسم فى مدرسة شبرا الثانوية . فأقبلت عليه أحييه فى شوق ولهفة ، اذ كان أحب المدرسين الى نفسى وأقربهم الى قلبى .. أولا لأننى كنت أجيد الرسم فكنت أعتبر حصصه أوقاتا للترفيه والتسلية ، وثانيا ، وهم الأهم ، لأنه كان مخلوقا ما عرفه انسان الا أحبه لطيبة قلبه ووداعة نفسه ، ولما فى أطواره من غرابة وطرافة .

كان الرجل فنانا أكثر منه أى شىء آخر . ولم يكن ذا كفاءة ظاهرة فى مهنة التدريس . وهى مهنة تحتاج قبل كل شىء الى «قرداتى» يعرف كيف يعامل هؤلاء «القرود» الذين يسمونهم «التلاميذ» . أما هذا الرجل الفنان بجسده الرقيق ، وذهنه الشارد ، فقد كان أبعد الناس عن أن يكون مدرسا .

كنا نحبه جميعا بلا استثناء .. وكيف لانحب مدرسا لانكاد نحس وجوده ولايكاد هو يحس وجودنا رغم تلك الضجيج الذى كنا نحدثه فيوقظ أهل الكهف ؟

أقول اننى لقيت الرجل منذ بضعة أيام .. لأول مرة منذ سنوات طوال .. وكان اللقاء فى قصر الجوهرة بالقلعة حيث انتدب لاعادة رسم بعض الزخارف ، ولم أره قد تغير كثيرا عما كان .. بياقته المنشأة ذات الأطراف المثنية وقد خرج منها عنقه المعروق الرفيع يحمل فى نهايته رأسه الصغير ذا الشعر الأشعث ، وقد أسند منظاره السميك على أرنبة أنفه ، وأغرق جسده فى بذلته «الأسموكن» السوداء .

وأقبلت عليه أحييه .. وأستطاع هو أن يميزنى بنظرة من وراء منظاره ، فرد على تحيتى بنفس الشوق واللهفة .. ودار بيننا حديث لم يكف خلاله عن الانهماك فيما يرسم .. ونظرت الى تلك الزخارف البديعة ، وهو يحرك عليها فرشاته فى مهارة وحذق ، وقلت بصوت ملؤه الاعجاب :

– رائعة .. ان عملك فى منتهى الدقة والبراعة .

فهز الرجل رأسه فى شىء من الاستخفاف ثم أجابنى قائلا :

– اننى لا أفعل أكثر من أن أعيد رسمها .. فاذا كنت ترانى بارعا لمجرد النقل .. فماذا تقول اذا فيمن خلقها وأوجدها ؟

وصمت الرجل برهة ثم عاد يقول :

– يخيل الى أن الذهن البشرى سائر فى طريق العجز .. فنحن فى كل ما نفعل اليوم لسنا الا ناقلين عمن سبقونا من العباقرة ، ولم نزل الى الآن نستوحى أفكارهم ومبتكرات عقولهم .

ونظرت اليه وقد انهمك فى عمله ، وقلت أناقشه فى شىء من الدهش :

– الذهن البشرى سائر فى طريق العجز ؟ . لا . لا ياسيدى قد يكون حقا اننا ننقل عن اسلافنا بعض أفكارهم ومبتكراتهم لنستعين بها .. ولكن هذا ليس دليل عجز .. أن الذهن البشرى قد يأتى الآن بأشياء لو رآها اسلافنا لصرعهم الدهش .. وانى لا أتصور ماذا يمكن أن يكون حال صاحبنا الذى رسم هذه الزخارف أول مرة لو بعث الآن من مرقده ليرى ما صنعه الذهن البشرى .. دعك من الذرة .. أو اللاسلكى .. أره فقط عربة تجرى فى الطريق .

وهنا رأيت الرجل قد وضع «فرشاته» فجأة ونظر الى بحدة واستغراب ، ثم قال :

– عجيب هذا الذى تقوله عن الرجل ، وعن العربة التى تجرى فى الطريق .. !

– وأى عجب فيه ؟

وأطرق الرجل ، وساد الصمت برهة ، ثم تكلم أخيرا كأنه يحدث نفسه :

– لو رويت لك الحقيقة لقلت ثمل أو مخبول .. هل يمكن أن تصدق أن الرجل الذى تعنيه قد حضر الى فعلا .. وأننا تحدثنا عن العربات ؟

ويستطيع القارىء طبعا أن يدرك كيف وقع قول الرجل فى نفسى .. ويستطيع طبعا أن يدرك مبلغ الجهد الذى بذلته لكى أكسو وجهى مظهر الجد ، وأن أكتم تلك الضحكة التى كانت تصطخب فى صدرى .. لقد كان الرجل جادا فى قوله .. ولم يبد عليه أنه ثمل أو مخبول .. بل كان يتكلم بلهجة ملؤها الصدق والاخلاص .. ثم هو فوق ذلك مدرس ومازلت أشعر نحوه باحترام التلميذ .. فقلت وقد بدت على أبلغ آيات الدهش :

– شىء عجيب ! ..

– انه لكذلك .. وقد حدث .. رأيته أمامى كما أراك الآن ! ..

– وكيف أتى ؟ .. ومتى ؟ ..

وصمت الرجل برهة استجمع فيها شوارد أفكاره ثم استطرد قائلا :

– كان ذلك منذ بضعة أيام قبيل الغروب .. وقد انهمكت فى الرسم .. عندما خيل الى أن شخصا يرقبنى ولم أكن قد سمعت أحدا يدخل .. ولا كنت انتظر زيارة أحد .. والتفت فجأة فاذا بى أجده أمامى تماما كما تقف أنت .. وقد أخذ يرقبنى بهدوء .. مرتديا سرواله الفضفاض وعمامته وصديريته ومركوبه .. ثم رأيته يهز رأسه باعجاب قائلا :

- شيء بديع .. هل تعلم أن هذا من صنعى ؟ لاأظن أن عندكم الآن من يستطيع أن يفعل مثله .

ولست أدرى ما الذى جعلنى لا أولى من الرجل - أو من الشبح - فرارا ولا أصرع منه رعبا .. ولكن الله أنزل السكينة فى قلبى فوقفت أتحدث اليه كما أتحدث اليك .. بغير خوف أو وجل .. ووجدتنى أقول له مجاملا :

- الواقع أنها شيء رائع .

ورأيته يتلفت حوله ثم يتساءل :

- لقد وجدت على القلعة أعلاما وزينات .. ما سرها ؟

- اننا نحتفل بتسلمها .

- تسلمها ؟ .. ماهى ؟

- القلعة .

- تسلمها ممن ؟

- من المحتلين .

- أو قد عاد اليكم نابليون مرة أخرى ؟

- لا .. ليس نابليون .. انهم الانجليز هذه المرة !

وبدا عليه الدهش .. ووجدت أنه شخص متعصب ، وأننى لو أطعت رغبته فى الاستقصاء على هذا النمط لاضطرنى الى أن أسرد عليه تاريخ مصر منذ أن شيدت القلعة الى يومنا هذا .

وكانت الظلمة قد بدأت تنتشر فلم أجد خيرا من التخلص منه بالانصراف . فبدأت أجمع أدوات الرسم فى حقيبتى وأتهيأ للخروج . ونظر الى متسائلا :

- الى أين ؟

- سأنصرف .. فقد أقبل الليل .

- ولم لاتوقد الشموع ؟

وهممت بأن أجيبه بأننا لانستعمل الشموع بل نضيء بالكهرباء .. ولكنى تصورت أى مأزق يمكن أن أضع فيه نفسى اذا سألنى عن الكهرباء فلم يكن خيرا من أن أوفر على نفسى الشرح .. فقلت له ببساطة :

- لقد نفذت الشموع .

ونظر الى نظرة رثاء لهذا الفقر الذى صرنا اليه ، ثم عاد يسأل من جديد أسئلته التافهة :

- ولم ترك الانجليز القلعة .. هل هجمتم عليهم ؟

- لا .. لا .. لم تحتج المسألة الى هجوم أو غيره . لقد استيقظ الوعى القومى وطالب بالجلاء .. فجلوا .

- لا .. لاأظن .. أغلب ظنى أنهم جلوا عنها لأنها قد أضحت قديمة غير ذات قيمة .. وأن الفضل فى جلائهم عنها يرجع الى انتشار «البق» فيها .

- أنت لاتعرف شيئا . لقد قلت أن الوعى القومى قد استيقظ ، وأن الأمة كلها قد هبت تطالب بالجلاء ووحدة وادى النيل .

- وحدة وادى النيل ؟ ماذا تقصد .. وممن تطلبون هذه الوحدة ؟

- من الانجليز .

- وما دخلهم ؟

- انهم يسيطرون على السودان ، ويحاولون فصله .

- ولم لاتطردونهم بجيشكم ؟

وهنا وجدتنى أوشك أن أنزلق الى مسألة أشد وعورة من شرح الكهرباء ، وهى مسألة شرح حالة الجيش المصرى .

فقلت له :

- ان المسألة لاتحتاج الى جيش ، فالسودانيون اخواننا ونحن وهم شعب واحد ، وهم يرغبون فى الوحدة كما نرغب فيها .

- اذا فهم الذين سيثورون ويطردون الانجليز ليتحدوا معكم ؟

وأقول الحق أن صبرى كان قد بدا ينفذ من الأسئلة التى أخذ ينهال على بها .

ولم أجد بدا من أن أنبئه أنى فى عجلة لأننى على موعد ولابد لى من الانصراف ، ومددت يدى اليه محييا ، ولكنه أنبأنى أنه سيسير معى ، فقلت له أننى لن أسير بل سأركب ، فسألنى : أعندك حمار ؟

فهززت رأسى : كلا ..

- لاشك أن عندك عربة .

- أجل عندى عربة بعشرة خيول .

ورفع الى الرجل رأسه فى ذهول ، وظننى أمزح .. ولكن لم يكن فى قولى شيء من المزاح فقد كانت عربتى فعلا عربة «فورد ١٠ خيول» . ووصلنا الى العربة ، ووقف الرجل أمامها حائرا .. لايجد أثرا لحصان واحد .. ونظر الى بشيء من الاحتقار ، ولكنى قفزت بسرعة داخل العربة حتى أزيل ما بدا عليه من احتقار وأدرت «المارش» ، وبدأت العربة تحدث صوتا عاليا ، فقد كانت ما سورة (الشاكمان) مكسورة .. فوجدت الرجل قد قفز من مكانه مرتاعا وأخذ ينظر الى العربة فى حذر واحترس .. وطلبت منه الصعود فاخذ يدور حول العربة فى حذر ، ثم تجرأ على لمسها فلما لم تلحق به أذى أخذ يتحسسها بيديه كأنه يتحسس ضريح أحد الأولياء .. وعلت البشاشة وجهه وبدت عليه فرحة طفل يلهو بدمية .

وجلس بجانبى وانهال على بسيل جارف من الاسئلة حاولت أن أجيب عنها فى حدود معرفتى بالعربات وعلى الأصح جهلى بها . على أى حال ، لقد كانت أسئلته معقولة حتى وجدته يسألنى فجأة أن أبيعه العربة فان لديه من الذهب ما يكفى لشرائها .

ونظرت الى الرجل الأحمق فى دهش وقلت :

- ولكنها لن تكون ذات فائدة لك .. حقيقة انه ليست لدى فكرة واضحة عن المكان الذى أتيت منه . ولكنى أعرف أنهم لاينتقلون هناك فى عربات .

- من أنبأك ؟ .. لا تحاول أن تستدرجنى لأشرح كيف يعيشون .. فالواجب علي أن ألزم الصمت .. على أنه ليس من شأنك أن تكون ذات فائدة لى أم غير ذات فائدة .. المهم هل تبيع ؟

وهنا أخرج من سرواله كيسا مملوءا بالقطع الذهبية وأفرغ جانبا منها فى حجرة فراعنى بريقها ، وعاد يسأل فى شىء من العظمة :

- كم تريد ثمنا لها ؟

وترددت برهة فقد كنت أعلم قبل كل شىء انه لا يعدو أن يكون شبحا ولم أجد ضيرا من أن أسير فى المزحة الى نهايتها . فقلت له :

- خمسين قطعة .

بدا الرجل بعد القطع .

وأخيرا جمعت النقود فى الكيس ووضعته بجوارى .

★ ★ ★

وصمت الرجل .. وأخذت أحملق فيه دهشا ذاهلا .. هذا الرجل العاقل الرزين .. قد باع عربته لشبح من عصر «محمد على» .. وهو يقص القصة بمنتهى الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة .. ماذا أقول له ؟ .. لقد قلت متهكما :

- ثم ماذا .. ماذا حدث بعد أن أعطاك النقود ؟

- لقد حدث بعد ذلك الشىء الغريب حقا فى الموضوع (كأن كل ما قصه على كان شيئا لا غرابة فيه) فلقد رأيتنى فجأة على رصيف الشارع فى المكان الذى سمعت فيه آخر كلمة .. بلا عربة وبلا شبح . لقد أختفى كل ما حولى كلمح البرق .. أو كأنما قد استيقظت من حلم . ولكنه لم يك قط حلما :

– هل أنت متأكد ؟

ولم يجب الرجل بل أخرج من حقيبة بجواره كيسا قد ملىء بالقطع الذهبية وبدا يفرغه أمامى قائلا :

– لو لم أجد هذا الكيس بجوارى لقلت مثلك أننى كنت فى حلم أو أن ما رأيته لم يكن سوى خيالات ثمل .

وساد الصمت .. واستغرقت فى تفكير عميق .. أنا شخص سبق لى أن قلت عشرات المرات أننى لا أومن بالأشباح ولا بالأرواح ولذا فقد وجدتنى أحاول أن أجد تعليلا لما قاله الرجل .. لقد كان يبدو لى أنه صادق فى كل ما قال .. فهو من ذلك النوع الذى لاتملك الا أن تصدقه .. والذى لايمكن أن يكذب .. اذا فلابد أن يكون ما قصه قد حدث له .. أو على الأقل قد خيل اليه أنه حدث له .. وعلى ذلك فالمسألة لاتعدو أحد أمرين : أما أنه كان ثملا وسرقت منه العربة ، وهذا غير معقول لأنه قد وجد بجواره النقود . واما أنه ضحية خدعة محبوكة الأطراف .. وهذا هو الأكثر احتمالا . وخاصة أنى شاهدت ملابس عهد محمد على متوفرة لدى الجنود الذين كانوا يقومون بالحراسة فى الاحتفال بتسليم القلعة ، وعلى ذلك فلا يستبعد أن يكون خبيث قد استطاع الحصول على هذه الملابس ، وأنه قد مثل دور الشبح مع الرجل خير تمثيل ، وأن ما أعطاه اياه من النقود ليس الا قطعا مزيفة ، وانه قد ضربه ضربة أفقدته رشده ، ثم تركه على افريز الشارع .

وكنت أعلم أن هذا الافتراض لايخلو من ركاكة . فان هناك وسائل لسلب الرجل عربته أسهل بكثير من هذه الوسيلة .. ولكننى لم أجد تعليلا لما قصه الرجل خيرا من هذا التعليل .. ولاشك أننى استطيع أن أجزم بصدقة لو استطعت أن أثبت أن القطع التى مع الرجل قطع مزيفة .

وسألت الرجل أن يعيرنى قطعة منها حتى أريها لخبير ليتأكد من أنها ليست مزيفة . ولم يتردد الرجل فأعطانى القطعة وتواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى .

وذهبت الى رجل أعرف له خبرة بهذه الأمور .. وفحص الرجل القطعة وامعن فى فحصها ولشدة عجبى رأيته ينظر الى ثم ينبئنى انها صحيحة . وأنها نادرة الوجود ، فهى من القطع التى كانت تستعمل فى عهد محمد على .

ورغم ما كان فى قوله من تأكيد للصفقة العجيبة فان ذهنى لم يستطع أن يقبل القصة بعد ، وذهبت الى دارى ، وفى الصباح استيقظت وفى نيتى أن أعيد القطعة الى صاحبها .. ولكنى لم أجدها حيث وضعتها .

ومضت بضعة أيام وأنا أجهد نفسى فى البحث عنها دون جدوى .. ولم أجد خيرا من الذهاب للاعتذار اليه ، وأن أعرض عليه ثمنا لها .

وذهبت الى الرجل فلقينى مرحبا ، وبدأت أروى له كيف سرقت القطعة .. ولكنه قاطعنى قائلا ببساطة :

– لا عليك .. لقد أعادها الى !

– من ؟ ... من الذى أعادها ؟

– الشبح .. لقد أنبأنى أنه خشى أن تضيعها فسرقها منك وأعادها الى ..

وهززت رأسى فى حيرة .. كيف أستطيع أن أصدق هذا ؟ كيف سرقت ؟ وكيف أعيدت ؟

أغلب الظن أن الرجل بعقله شىء .. لوثة .. أو خبل .

على أية حال .. حمدا لله ، أن الشبح السارق قد أعاد القطعة اليه .. فأبرأ ذمتى .

وحمدا لله أيضا أننى لم أكن مستيقظا عندما ارتكب سرقته .. والا كانت «تبقى عباره» .

★ ★ ★

عِلمُهَا عِندَ رَبّى

كيف حدث ما حدث ؟ .. أين ذهبت الدار ؟ .. هل كان كل ما رأيت حلما ؟ .. هل كانت الفتاة شبحا ؟ .. هل شفيت الفتاة ؟ .. هل ماتت ؟ ..

كان ذلك فى احدى الأمسيات .. وقد ضمتنا ندوة من الأصدقاء والمعارف .. وكنا خليطا من مختلف المهن والأعمار ، وأخذنا نقطع الوقت بالسمر أو لعب النرد والورق .. وجلست أنا أمام المذياع أنصت الى بعض الهذر واللغو حتى ضقت به ذرعا فأسكته .. والتفت الى الصحبة السامرة اشترك معها فى الحديث فسمعت أحدهم يقول متمما بقية قول لم أسمع أوله :

- واستمر الطرق على النافذة فى نفس الموعد كل ليلة .. وكنت أسمع وقع أقدام فوق السطح تغدو وتروح .. ثم أسمع صوت هبوط جسم ثقيل .. واؤكد لكم أنى لم أكن جبانا فى يوم من الأيام .. ولكن هذه الأصوات فى منتصف الليل كانت تبعث فى جسدى قشعريرة .. ولقد حاولت بضع مرات أن أتسلل الى الظلمة وقد أمسكت فى يدى سكينا لعل الطارق أو السائر يكون لصا .. ولكنى لم أعثر على أحد قط .. وكنت لا أكاذ آوى الى فراشى حتى يعود الطرق .. وأخيرا لم أعد أحتمل .. فتركت الدار تنعى من بناها .

وصمت القوم .. وأخذوا يهزون رؤوسهم فى دهش وتساؤل ، ثم قال أحدهم معلقا :

– أجل .. لاشك فى وجود الأرواح والأشباح ، لقد سكنا ذات مرة بجوار احدى الدور المسكونة .. التي قيل لنا أن صاحبها مات محروقا .. ولم يكن الأنين ينقطع طول الليل وكنا أحيانا نسمع عويلا وصراخا .

وأمن البعض على أقواله بهز الرؤوس ، وبدت الحيرة على البعض لآخر .

ولم أحتمل هذه الخرافات .. فانبريت أقول وأنا أضحك ساخرا :

– كلام فارغ – هذه كلها أوهام وتصورات مبعثها ضعف الأعصاب .. هذا الطرق على النافذة ، والأقدام التى تروح وتغدو والصراخ والأنين .. لاشك أنها صادرة من مصدر ملموس كائن .. لست أدرى ما الذى يبعث روحا من الأرواح على أن تمضى ليلها فى دق نافذة ، أو التمشى على سطح .. أو بح صوتها فى الصراخ والأنين ، هذه سخافات .. حرام علينا أن ننسبها للأرواح .. ولو بحثنا جيدا لوجدناها ناتجة عن أتفه الأسباب .

وصاح الصديق صاحب النافذة المطروقة :

– كيف ؟ ومن تظن انه صاحب الطرقات وصاحب الأقدام التى تغدو وتروح ؟

– صاحب الأقدام قد تكون قطة على السطح .. أما الطرقات فقد تكون صادرة من شنكل مكسور تعبث به الريح .

واندفع صاحب البيت المسكون يقول فى استخفاف وسخرية :

– والأنين والعويل .. ما سببهما ؟

– كلب جريح .

– لا فائدة من المناقشة معك ، انك انسان تستخف بكل شيء وتظن أنك تعرف كل شيء .

واندفع الباقون يسفهون رأيى .. فانتظرت حتى خف ضجيجهم وقلت :

– لابد أن يكون لكل شيء سبب .. ولو بحثنا عن أسباب هذه الخزعبلات جيدا لاستطعنا أن نعثر عليها .. ولوجدناها فى منتهى التفاهة .. لاتمت الى الأرواح أو الأشباح بأية صلة .

وكان واحد من القوم قد اتخذ مكانا قصيا .. ولم يحاول أن يشرك نفسه فى المناقشة ، وهو طبيب معروف عاقل رزين فسمعته يقول معقبا على قولى :

– معك حق .. فأنا مثلك لا أومن بالاشباح .. ولكن يخيل لى أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال – غير ذلك العبث من طرق على النوافذ وأنين فى سكون الليل – أفعال تعنى شيئا .. أو تكون ذات فائدة لكائن بالذات .. دون أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها .

ولم أفهم بالضبط ما يقصده الطبيب ، وكذلك بقية الرفاق والظاهر أنه قد رأى قوله غير مفهوم .. فقد تناول ثقابا وأشعل سيجارته ، وقال وهو ينفث دخانها ببطء :

– يبدو أنى لم أستطع أن أوضح قولى جيدا .. اذن فاسمعوا ما أقصه عليكم :

حدث هذا منذ بضع سنين اذ كنت مدعوا لقضاء بضعة أيام فى عزبة «زكى بك عبد العال» صاحب مصانع النسيج المعروفة بالمحلة .. وهو رجل كريم لطيف المعشر .. زرته بضع مرات فى مرض ألم به فأصر على أن يرد الجميل بدعوتى الى عزبته .

ولقد قبلت الدعوة مكرها ، اذ كنت موقنا بأنى لن أجد من وسائل التسلية فى عزبته النائية ما يجعلنى أقضى وقتا طيبا .

وذهبت .. لمجرد رغبتى فى الا أولم الرجل برفض دعوته على أن أعود بعد يومين على الأكثر .

واستقر بى المقام فى الدار القائمة بين المزارع المترامية ، وأدهشنى

أن أجد فى الريف بيتا بمثل هذه الفخامة .. فقد كانت تتوفر فيه كل وسائل الراحة والتسلية .

ومرت بى الأيام الأولى دون أن أحس بأى ملل .. فقد كانت لكل تلك المرغبات - مضافا اليها عامل مهم ، أو هو أهمها جميعا ، وهى بنت أخى زكى بك - أثرها الفعال فى استبقائى .. ونسيانى ما كنت قد عقدت النية عليه من عودة سريعة .

كنت أقضى اليوم فى لعب التنس ، أو فى السباحة ، أو فى ركوب الدوكار ، أو صيد السمك .. تشاركنى الفتاة فى كل ما أفعل .. وكانت سمراء جذابة ، شديدة المرح ، تفيض أنوثة وجاذبية .

ورحلت الفتاة فى اليوم الرابع .. وبدأت أحس بالفراغ والوحشة .. وخيل الى أنى قد أحببت الفتاة .. وصممت فى نفسى على أن أتقدم لخطبتها .

وحدث فى اليوم الذى عزمت فيه على الرحيل أن دعانا «عمر بك شريف» لزيارته وقضاء السهرة عنده .. وكان يملك العزبة المجاورة ، وقبيل الغروب أخبرنى «زكى بك» أنه يحس بتوعك وأنه يفضل أن يستريح ، وسألنى أن أذهب وحدى قائلا : أنه قد أمر الأسطى محمود بتجهيز «الدوكار» ليقلنى الى هناك .

وكنت أحب قيادة الدوكار ، فأجبته بأنى أعرف الطريق الى بيت عمر بك وأنى أستطيع الذهاب وحدى .. فلا ضرورة لأن تتعب الأسطى محمود .. دعه يستريح .

وبدأت السير وأنا أحس بنشوة عجيبة .. وكنا فى أكتوبر ، وجو الخريف رطب منعش ، والشمس تتهادى فى الأفق مجررة ذيولها الحمراء على رؤوس الأشجار وأطراف المزروعات .. والجواد يمشى مرحا .

ولاحت لى أخيرا الأشجار العالية المحيطة بدار شريف بك .. ثم عبرت البوابة الخشبية القائمة أمام باب الدار والمتصلة بالسور الذى يحيط بالحديقة .. وكانت الظلمة قد سادت وتبدد النور الا بقايا باهتة واهنة تبدى من المرئيات أشباحا غامضة .

وتسلم العربة والجواد أحد الحراس .. ودخلت الدار فوجدت صاحبها في انتظاري مع ثلة من الأصدقاء واعتذرت عن زكي بك ثم اتخذت مجلسي بينهم .. متشاغلا بالحديث تارة وباللعب تارة أخرى .

وحان وقت العشاء فنهضنا الى حجرة الطعام .. وبيد كل كأسه ، وسرت بينهم أحمل كأسا من الويسكى المخفف أخذته بعد الحاح ، اذ لم أكن متعودا الشراب .

ولم أتناول من الطعام الا قليلا .

وعدنا بعد العشاء لنواصل اللعب والضحك .. وعندما بلغت الساعة العاشرة استأذنت في الانصراف .

وخرج شريف بك ليوصلني الى الحديقة ، ووجدت العربة في الانتظار ، وقد أضاء الحارس مصباحها ، واتخذت مكاني على مقعد السائق ، وقلت لمضيفي :

- أرجو أن أرد ضيافتك في مصر .. حتى استعيض الريال الذى خسرته في اللعب .

وضحك شريف بك وقال :

- سأزورك ان شاء الله .. لأضاعف الربح .

وحييته ، ثم جذبت اللجام فتحرك الجواد ولوحت للرجل بيدى ، وانطلقت من البوابة الخشبية الى الطريق .

ولم تكن الظلمة شديدة في بادىء الأمر ، فقد كانت أضواء النجوم تظهر لى هيئة المرئيات واضحة جلية .. ولم يصعب على أن أميز تهويمات التربة من أشجار وأكواخ ، وكان مصباح العربة يبدد بعض الحلكة فيزيدنى اطمئنانا .

ولكن عندما أمعنت في السير بدأ الضباب يملأ الجو وزادت الظلمة وذهب الضوء الخافت الشاحب الذى كان يهبط من النجوم المتألقة .. ولم يعد المصباح قادرا على أن يكشف جوانب الطريق .

وبدأت أتمهل وأعيد لنفسي وصف الطريق «ألف الى اليمين عند شجرة الكافور التي تكدست بجوارها أكوام السباخ .. ويظل الطريق مستقيما حتى أبلغ بضعة أكواخ محيطة بساقية ، فألف الى اليسار ثم أعبر القنطرة ، وأسير بجوار الترعة حتى أبلغ البيت» .

وأحسست بشيء من الراحة عندما أقنعت نفسي بأنه لا خوف على من الضلال وسط الضباب والظلمة .

ولاحت لي شجرة الكافور فاتجهت يمينا ، وواصلت السير فى الطريق المستقيم .. وأنا أمعن البصر فيما حولى باحثا عن الأكواخ والساقية ، وخيل الى أنى قد سرت أكثر مما يجب دون أن أبصر فى الطريق أية معالم .. وتوقفت برهة ونزلت من العربة وأخذت أسير هنا وهناك محاولا العثور على مكان الساقية حيث يوجد الطريق المتجه يسارا والذى يعبر القنطرة ..

وعدت الى العربة دون أن أتبين من حولى شيئا .. وقلت لنفسى أننى قد أكون مخطئا فى تقدير طول المسافة التى قطعتها وأن الساقية ما زالت بعيدة .

وعاودت السير مرة أخرى ، حتى لاح لى طريق يتجه يسارا فدلفت فيه آملا أن أعبر القنطرة بعد حين .. ولكن السير طال دون أن أعثر على أى أثر .. وأدركت أنى ضللت الطريق ، وقلت لنفسى أن خير ماأفعل هو أن أعود الى بيت شريف بك لأستعين بأحد رجاله ، أو لأقضى الليلة معه حتى الصباح .

وأدرت العربة عائدا من حيث أتيت .. وبدأت أستعيد لنفسى المرات التى لففت فيها حتى لا أضل فى العودة أيضا .

ومع ذلك فقد ضللت ، وأخذ الوقت يمر بى وأنا ممعن فى السير ، أتخبط على غير هدى .. دون أن تبدو لى بارقة ضوء

عجبا .. ألا يوجد كوخ واحد من أكواخ الفلاحين أستدل منه على الطريق .. فلا شك أن أى فلاح فى هذه المنطقة يعرف بيت «زكى بك» أو «شريف بك» .

يجب الا أيأس ، فلابد أن أعثر على من يدلنى على الطريق ، أو على من يأوينى عنده حتى الصباح .

وسار الجواد متثاقلا يضرب الأرض ضرباته المنتظمة .. وأحسست بالتعب ، وبالنوم يثقل أجفانى .

ولست أدرى بالضبط هل نمت طويلا وأنا ممسك باللجام ، أم أن عينى لم تغفلا سوى لحظة خاطفة .. فالانسان عندما ينام فى مثل هذه الظروف لايستطيع أن يعرف مدة نومه ، بل لايستطيع أن يعرف ان كان قد نام أم لا .

على أية حال لقد كان أول ما أبصرت عندما فتحت عينى ضوءا يلوح على مقربة .

وبدد رؤية الضوء ما عرانى من خمول .. وحثثت الجواد متجها الى مصدر الضوء .. وبعد فترة قصيرة كنت أقف أمام بوابة خشبية مقفلة .

وهبطت من العربة واقتربت من البوابة القصيرة ودفعتها ففتحت .. ووجدت الأشجار المتكاثفة قد حجبت الضوء الذى كنت أبصره وأنا فى الطريق .. ولم أعد أميز شيئا أمامى ، فعدت الى العربة ونزعت منها المصباح حتى أسير على هديه .

وسرت فى ممر ضيق يقوم على جانبه سور من الدرنته لم تمتد اليه يد المقص منذ زمن طويل .. وفجأة انطفأ المصباح ووجدت نفسى مرة أخرى فى ظلمة دامسة .. ولم أجد بدا من التخبط فى الظلمة حتى أصل الى نهاية الممر .

ولم يطل بى السير حتى وجدت نفسى أمام بضع درجات حجرية تؤدى الى باب ، ولاح لى الضوء الذى أبصرته وأنا فى الطريق .. ومددت يدى فقرعت الباب .. ومضت برهة ثم سمعت وقع أقدام متثاقلة تقترب من الداخل .

وأحسست بشيء من الخجل وأنا أقف أمام الباب فقد كانت الساعة تكاد تبلغ الثانية عشرة .. وتصورت ذلك الازعاج الذى سببته لأصحاب الدار .. وتصورت حنقهم عندما يتبينون انى اسألهم عن الطريق الى بيت فلان «أو علان» .

وتوقفت الأقدام وراء الباب ، ثم ضغط على زر كهربائى فأضاء فوقى مصباح غمر المكان بنور قوى ، ثم فتح الباب ووجدت أمامى امرأة فى خريف العمر ، تلتحف بشال أسود غطى رأسها وكتفيها وبدا وجهها أصفر تتخلله بعض التجاعيد وتحيط به الشعيرات البيضاء .

وأحنيت رأسى وقلت بأقصى ما استطعت من أدب ورقة أشرح لها ما أريد :

– مساء الخير .. أنا الدكتور ...

وهنا حدث آخر ما كنت أتوقع .. حدث ما تركنى مشدوها مذهولا .. وأوقف الكلمات على لسانى .

لم تكد المرأة تسمع منى كلمة «دكتور» حتى اندفعت الى تمسك بذراعى وتصيح فى صوت متشنج باك :

– الدكتور ! .. أغثنا ياسيدى .. أدركنا .. لقد كدنا نيأس من حضورك .. ابنتى يادكتور .. أرجوك .. تفضل .. لقد أرسلنا الخادم لكى يحضر طبيبا من البلدة منذ ساعتين فلم يحضر حتى الآن .

ولم يكن يسعنى سوى الرضوخ للمرأة ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع على ، ولم تكن حالتها تعيننى على أن أشرح لها ما أتيت من أجله أو التفاهم معها على أى شيء ! ..

وتبعتها صاغرا مشدوها الى الطابق الأعلى وهى مستمرة فى نشيجها وتوسلاتها الى أن أنقذ ابنتها .

ودخلت وراءها فى احدى الحجرات ، فاذا بى أجد فتاة راقدة على فراش .. فتاة .. ما زالت صورتها حتى الآن مطبوعة فى ذهنى لاتفارقه .

لقد كانت جميلة ما فى ذلك شك .. ولكنى لا أظن الجمال وحده يمكن أن يترك فى نفسى ذلك الأثر .. لقد كان بها ما يشبه السحر .

وجلست بجوارها وهى مغمضة عينيها نصف اغماضة ، وقد بدا عليها الألم .. فأمسكت بيدها أجس نبضها وأنا أطلب من امها الهدوء ، وسألتها أن تشرح لى ما بها .

ولم يصعب على أن أدرك أن الفتاة مصابة بنزيف أحدث عندها هبوطا فى القلب ، وأنها فى أشد حالات الخطر ، وأن الاعياء قد بلغ بها حدا تحتاج معه الى اسعاف سريع وعلاج عاجل .

وكان على أن أبدا باعطائها كورامين .. ثم آخذ فى ايقاف النزيف واسعافها بالعلاج العادى .

ولم يكن بالدار شىء من هذا .. ولم تكن هناك صيدلية قريبة .

وتذكرت أن زكى بك يحتفظ فى داره بكمية من مختلف أنواع الأدوية للطوارىء .. فنهضت من مقعدى ، وقلت للمرأة أنى سأعود اليها حالا ، بعد أن أحضر لها الأدوية المطلوبة .

واندفعت أهبط فى سرعة جنونية ، وقفزت الى العربة ، وألهبت ظهر الجواد .. فانطلق يعدو ...

الى أين .. ؟ !

يا للحمق والغباوة .. لقد نسيت أهم شىء أتيت من أجله نسيت أنى قد ضللت الطريق .

وهممت بأن أجذب الجواد لأعود الى المرأة مرة أخرى وأسألها عن الطريق الى البيت الذى أريده .. فلاشك أنها تعرفه ..

ولكنى لم أكد أجذب اللجام حتى سمعت صوت حوافر الجواد تطرق أرضا خشبية .

عجبا .. انها القنطرة .. وليس على لكى أصل الى البيت الا ان أسير بجوار الترعة .

وعجبت لتصاريف القدر ، لو أنني سرت برهة ولم أتوقف عند الضوء لعرفت الطريق ولما فكرت فى أن أتوقف وأقرع الباب وأعود المريضة التى كانت تتلهف على طبيب .

وأخذت أستحث الجواد ، غير عابىء بظلمة ولا ضباب ، وانطلقت العربة بسرعة جنونية .

وفجأة كبا الجواد .. وأحسست بالعربة تتمايل وتترنح .. ولم أشعر بنفسى الا وأنا ملقى على الطريق أكاد أهوى الى الماء ..

ونهضت أتحسس أعضائى فوجدتنى سليما لم يمسنى سوء .. ولكن الجواد كان ملقى على جانبه والعربة مقلوبة .

ونظرت أمامى فوجدت أضواء تلوح على بعد ، لم أشك فى أنها صادرة من الدار التى أقصدها .

وبلا تفكير انطلقت أعدو .. ووصلت الى الدار مبهور الأنفاس خائر القوى ، ووقفت أمام الباب أقرع الجرس قرعا متواصلا .

وفتح الباب ، ووجدت «زكى بك» ينظر الى مشدوها وقد بدا عليه الانزعاج ، وسألنى عما أخرنى الى هذا الوقت ؟

واندفعت أقص عليه كل ما حدث باختصار ، وأسأله أن يرينى الصيدلية التى لديه حتى آخذ منها ما أريد ، وأن يأمر بتجهيز عربة أخرى .

ونظر الى «زكى بك» فى ذهول واقترب منى يشم رائحة فمى وقال فى هدوء :

– لقد شربت أكثر مما يجب .

– أرجوك يازكى بك .. استمع الى .. انى لم أشرب سوى كأس واحدة .

- وهذا أكثر مما يجب .. ان ما رأيته لايمكن أن يكون حقيقة لسبب بسيط ، هو أن هذه المنطقة لاتحتوى ، - لمسافة أربعين كيلو - غير بيتى وبيت شريف بك ، وأكواخ الفلاحين .. وما سمعت قط أن هناك امرأة وابنتها فى دار على مقربة من هنا وأنت نفسك مررت بالطريق قبل ذلك ، فهل أبصرت هذه الدار التى تتحدث عنها .. ؟ ادخل .. ادخل هداك الله .

- ولكننى أقسم أن ما رأيته حقيقة ، ان الفتاة توشك أن تقضى نحبها .

وكنت ، وأنا اؤكد له قولى ، أقول لنفسى : حقا انى لم أبصر أثرا للدار قبل الليلة .

ومع ذلك فقد أصررت على العودة ، وعلى ان آخذ الأدوية ، وقال لى زكى بك :

- لايمكن .. لن أدعك تخرج .. انك متعب .. انتظر حتى الصباح وسأذهب معك بنفسى .

- ولكن لن تعيش الى الصباح .

ومع ذلك فلم يكن هناك بد من الانتظار .. فقد أصر زكى بك على الا يعطينى الأدوية ، والا يسمح لى بالخروج ، وكانت قدماى لاتقويان على حملى من فرط ما عدوت .. ولم أجد بدا من الاستلقاء بملابسى على احدى الأرائك حتى الفجر .

وقبل أن تشرق الشمس ، كنت أوقظ زكى بك وأرجوه فى الحاح أن يعطينى الأدوية .

وهز الرجل رأسه فى دهش واستسلام ، ثم نهض وارتدى ملابسه وانطلقنا بالعربة بعد أن أحضرها رجاله وأصلحوا ما بها .. وغيروا الجواد .

ولا أظننى فى حاجة الى أن أخبركم مبلغ ذهولى وخجلى ، ونحن نجوب المنطقة شبرا شبرا .. نبحث عن الدار المزعومة فلا نجد لها أثرا .



كيف حدث ما حدث .. ؟ أين ذهبت الدار .. ؟ هل كان كل ما رأيت حلما طاف برأسي وأنا نائم على مقعدى بالعربة ثم أيقظنى منه وقوع الجواد وانقلاب العربة ؟ .. هل كانت الفتاة شبحا ؟ .. هل شفيت الفتاة ؟ .. هل ماتت ؟ .

وساد القوم سكون عجيب الا من صوت خافت همس بيننا :

- أجل ماتت ..

ونظرنا متعجبين الى صاحب الصوت وكان رجلا كهلا حديث المعرفة بنا .

وتلفت اليه الطبيب وسأله فى دهش شديد .

- من أدراك .. أتعرفها ؟

فأجاب الآخر فى صوته الخافت ونبراته الهامسة :

- أجل انها ابنتى .... ماتت منذ أربعة أعوام ، اذ حدث لها نزيف أودى بها .. وكنا نقطن وقتذاك فى الأقصر ، حيث كنت أعمل فى السكة الحديد .. وغبت عن الدار ذات ليلة فى جولة مرور ... وعدت فى الصباح وجدت الابنة قد ماتت ... والأم تردد فى شبه هذيان :

- لو عاد الطبيب ، لما ماتت ...

وعلمت منها أن النزيف حدث فجأة وأنها أرسلت الخدام يبحث عن طبيب فطالت غيبته .. وأخذت تدعوة الله أن يعجل بحضوره ... وفجأة طرق الباب ، ودخل الطبيب ، وقد بدا لها كأنه هبط من السماء .... وفحص الفتاة ، ثم قال انه سيعود سريعا بعد أن يحضر الدواء والاسعاف اللازم .. ولكنه لم يعد قط .

وصمت الرجل ثم مد يده الى جيبه فأخرج محفظة صغيرة سحب منها شيئا .. أعطاه للطبيب .

وفغر الطبيب فاه ، وجحظت عيناه ، وهتف بصوت مبحوح وهو يحملق فى الصورة :

- انها هى .

★ ★ ★

مجنونان .. مخبولان .. كيف يصدق عاقل مثل هذا الهراء ؟ .

أيمكن أن يحدث هذا ؟ .

أهذا ما عناه الطبيب بقوله أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال - غير ذلك العبث من طرق النوافذ وأنين فى جوف الليل ؟! - افعالا تعنى شيئا دون أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها ..

كيف يمكن أن يعلل ما حدث ؟

أهو تجاوب أرواح .. الله وحده أعلم

«ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى» .

★ ★ ★